الباب الأول
أنا.. وعبد الناصر

الفصل الأول

الطريق إلى الملك فيصل «١»

لم يكن اللقاء بالرئيس عبدالناصر مخططا، كما لم اسـع إليه لا فى المرة الأولى ولا فيما بعد، وبالمثل فإننى لم أسع للقاء الرئيس السادات أما الرئيس حسنى مبارك فقد عرفته وهو ضابط وقائد بالقوات الجوية وظلت العلاقة مسـتمرة بعد أن أصبح نائبا لرئيس الجمهورية ولكنها تراجعت بعد أن صعد إلى مقعد الرئاسة.

وإذا ما عدت إلى الخلف وحاولت العثور على نقطة بداية لكل ما جرى وما عشـته من أحداث يمكن تبين علامات على الطريق لم يكن من الممكن قراءتها وقتذاك. والآن أجد أن الحيـاة سلسـلة متصلة من الحلقات كل منها تفضـى إلى الأخرى دون أن تبوح بالمجهول أو بمـا هو قادم. حتى الطموحات والأحلام والأمانى لم تكن تشـى بشـىء فالكل يملكون أحلامهم الخاصة والعامة والكل يحاول الوصول إليها أو لا يحاول ويكتفى بامتلاك الأحلام أيا كانت عظمتها أو تواضعها.

وعالم أحلامى منذ البداية ارتبط بقضية الوطن والتحرر من الاسـتعمار. فى ذلك الوقت كان الطرح بسيطا، أن مشروع النهضة والتقدم سيبدأ وينطلق بقوة بعد القضاء على الاستعمار أى أن مقاومة المستعمر الإنجليزى هى الطريق للانعتاق والانطلاق.

وعـاش جيلـى يحلم ويعمل مـن أجل التحـرر من الاسـتعمار وكان المنـاخ آنذاك هو التظاهر.

وكتلميذ بالمرحلة الابتدائية كنت اكتفى بالمشاركة فى المظاهرات التى تخرج من المدارس الثانوية لتسير فى شوارع مدينة الزقازيق.. وفى بداية المرحلة الثانوية التى عشتها بمدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية التى كان بها سـنتان من مرحلة الدراسـة الثانوية السنة الأولى والسـنة الثانية، مرت مظاهرة خرجت من مدرسـة الزقازيق الثانوية الأميرية وعبرت بحر مويس حتى وصلت إلى أسوار مدرسة الزقازيق الابتدائية الأميرية والكل يهتف يحيا اتحاد

الطلبة.. كنا فى الفصول والدراسة مستمرة والمدرسون ينصحوننا بالاستمرار فى الدراسة وعدم الالتفات إلى المظاهرة إلا أننى غادرت مقعد الدراسة وهتفت «يحيا اتحاد الطلبة» فخرج الفصل معى فى مظاهرة وتمكنا من إخراج باقى الفصول وانضممنا إلى مظاهرة الزقازيق الثانوية. وأفسح لى قادة المظاهرة الكبار مكانا للاشتراك فى القيادة وكانت المرة الأولى التى أقود فيها مظاهرة ولم تكن الأخيرة.

وعندما أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء فى أكتوبر عام ١٩٥١م إلغاء معاهدة ١٩٣٦م بدأت عمليات فدائية فى منطقة القناة للضغط على قوات الاحتلال من أجل أن يرحل. كنت بالسنة الثالثة الثانوية بمدرسة الزقازيق الثانوية فتوجهت للتطوع بكتائب حزب الوفد التى رأيت أنها الأنسب بالنسبة لى.

ورغم صغر سنى «١٤ عاما» تم قبول تطوعى ورحبوا بى باعتبارى زعيما صغيرا أى أنه لولا قيادتى لمظاهرة مدرسة الزقازيق ما قبلوا تطوعى.

حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى بشىء مما هو قادم.

وبعد مرحلة تدريبية قصيرة اشتركت فى العمل الفدائى. فى البداية شاركت فى نقل الأسلحة والذخائر، ورأى القادة أننى يمكن أن أشارك فى العمليات الفدائية بشكل مختلف فانتقلت لمرحلة الاشتراك فى العمليات العسكرية ضمن القوة السائرة أو قوة الحماية بعدها شاركت فى عمليات الاقتحام وذاع صيتى باعتبارى الأصغر سنا بين الفدائيين بمنطقة القناة.. والأكثر جرأة وربما كان ذلك لأننى صغير السن لا أحسب العواقب جيدا. وبعد معركة الإسماعيلية التى هاجمت فيها قوات الاحتلال الإنجليزى مبنى مديرية الإسماعيلية وقوات الشرطة والأمن يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢م واحتراق القاهرة اليوم التالى توقفت الأعمال الفدائية بمنطقة القناة، وعاشت مصر مرحلة المخاض اليوليوى.

وكان المحور الثانى فى عالم اهتماماتى هو القراءة وقبل أن أحصل على شهادة التوجيهية «إتمام الدراسة بالمرحلة الثانوية» كنت قد تمكنت من قراءة معظم الكتب الموجودة بمكتبة البلدية «المكتبة العامة» بالزقازيق بالإضافة إلى مكتبة المدرسة وقد أقام الأستاذ عطية السيد مدرس اللغة العربية والمشرف على المكتبة حفل تكريم لى حضرها الناظر والمدرسون وممثلون من التلاميذ لمختلف السنوات الدراسية وتم إهدائى مجموعة من الكتب، وأقر الجميع أنها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك.

هذا الاستغراق فى القراءة وهذه العوالم المبهرة للكلمة والسياحة عبر الصفحات التى لم تعرف التوقف فى عالم المعرفة والأفكار شجعنى على التردد على ندوات الكبار بالقاهرة. العقاد. مندور. نادى القصة. النادى الثقافى بجاردن سيتى، نجيب محفوظ، القبانى كلما كانت الفرصة متاحة.

والأهم كان بداية التساؤل، ولماذا لا أحاول الانضمام إلى عالم أهل الكلمة؟ ولماذا لا أحاول أن أكون صحفيا؟ وكانت تلك نقطة البداية فى حلم الالتحاق ببلاط صاحبة الجلالة، وعلى امتداد سنوات الأحلام لم تتوقف محاولاتى إلا بعد الانضمام لأسرة جريدة الأخبار ولم يكن هناك من أبناء العائلة من فكر فى اختيار الصحافة مهنة له قبلى وهذا ما جعلنى أول أفراد الأسرة فى بلاد صاحبة الجلالة ليس ذلك فقط بل لم يكن هناك خال أو عم أو قريب أو صهر أو نسيب يمكن أن استفيد من خبرته أو أن يقدم لى يد المساعدة لذا لم يكن أمامى سوى الاعتماد على الله وعلى نفسى إذا ما أردت الاستمرار والنجاح. ولقد كنت راغبا فى النجاح بكل خلية وكل ذرة فى كيانى كما كنت فى الوقت نفسه أخشى الفشل جدا، ولم يكن أمامى سوى العمل بكل ما أملك من طاقة بل وبما يجاوز حدود هذه الطاقة، كانت المنافسة شديدة الشراسة فالمهنة مهنة منافسة والسوق مفتوحة ولم تكن قرارات تأميم الصحافة قد صدرت بعد. وكان النجاح هو طريق الصعود. وكانت نماذج النجاح عديدة وكلها سارت على الدرب بالعمل والكفاءة والذكاء والموهبة، وكان الجميع يقولون لنا إن الموهبة تشكل ١٪ فقط أما المثابرة فتشكل ٩٩٪ هذه إذن معادلة النجاح. المثابرة والموهبة وفى ظل هذه المنافسة المشروعة فى مهنة لا تعرف الأقدمية والدرجات كان الكل يعمل ويسعى للنجاح ووضعت نصب عينى أن أعمل أكثر من الآخرين وأن أتجنب الوقوع فى الأخطاء قدر الإمكان، وقد كان، كنت أعمل لأكثر من ١٦ ساعة يوميا فبعد جولة الصباح والظهيرة بحثا عن الأخبار والمعلومات أنضم إلى الفريق الذى يساعد نائب رئيس التحرير المسئول عن إصدار الجريدة ولا أغادر المبنى إلا بعد صدور الطبعة الأولى.

هذا الحرص الفائق على النجاح والخوف الكبير من الفشل ومتابعة الجميع للجهد الذى أبذله كان وراء ترشيح مجلس التحرير لى بالإجماع للسفر إلى المملكة العربية السعودية بعد توقيع كل من الرئيس عبدالناصر والملك فيصل اتفاقية جدة فى أغسطس ١٩٦٥م لإنهاء الصراع العسكرى فى اليمن، لإعداد مجموعة من التقارير والتحقيقات عن الموقف والأوضاع

عقب هذه الخطوة الرئيسية، وهذا القرار فتح لى الباب للقاء الملك وبسبب الحوار الصحفى مع الملك، كان اللقاء مع الرئيس عبدالناصر لأول مرة، حلقة تقود إلى أخرى دون أن تشى، أو تبوح بأى شـــىء. خطوات على طريق الأقدار لا يمكن لبشـــر تقديرها أو التنبؤ بها. أما المحور الثالث للاهتمامات فيرتبط ارتباطا وثيقا بالمحور الثانى فقد كشـــفت لى قراءة تاريخ مصر الارتباط بين الانتصارات العسكرية والازدهار والعكس صحيح أى الارتباط بين الهزائم والانكســـار ودون الاســـتغراق فى التفاصيل ســـنكتفى بالإشارة إلى أن ســـنوات الانتصارات العسكرية لجيش محمد على باشا كانت هى السنوات المضيئة فى عصره وهى التى شهدت بنـــاء قواعد النهضة المصرية الحديثة بـــكل جوانبها العلمية والتعليمية والثقافية والصناعية والزراعية والاجتماعية.

وعندمـــا ذاقـــت مصر طعـــم الهزيمة بعد اشـــتراك القوى العســـكرية الأوربية فى تدمير الأسطول المصرى فى نافارين عام ١٨٢٧م وإرغام الجيش المصرى على الانسحاب من الشام والتقوقـــع داخل حدود مصر وفـــرض معاهدة لندن ١٨٤٠م على والى مصر الشـــجاع بدأت سنوات التراجع والانكسار الداخلى.

وتكرر الأمر فى عصر إسماعيل باشـــا، فقد تحركت قواته للاســـتيلاء على كل من زيلع ومصوع وســـواكن على شـــاطىء البحر الأحمر الغربى، ووفرت الحماية لعمليات استكشاف منابـــع النيل فبدأت ســـنوات الازدهار من جديد وانطوت الصفحـــة فى عصر ابنه الخديو توفيق باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م.

وعاد الجيش المصرى إلى صدارة المشـــهد بالعمليات العسكرية فى السودان وواكب ذلك وأعقبه ثورتا مصطفى كامل وســـعد زغلول وإصدار دســـتور ١٩٢٣م، فعادت مصر لتواصل الســـير على طريق بناء مشروعها النهضوى الذى بدأه محمد على باشا. وعندما بدأ الصراع العســـكرى المصرى الإســـرائيلى فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى وواجهت مصر الهزيمة فى معركة ١٩٤٨م بدأت الشروخ فى الجسد المصرى.

وكان هـــذا المحـــور وراء اختيارى العمل فى القطاع العســـكرى بجريـــدة الأخبار دعما للقوات المسلحة وأحلام الانتصار الذى سيقود مصر للازدهار من جديد.

وهذا التخصص فتح الباب لعلاقات وطيدة ومفتوحة بقادة وضباط القوات المسلحة والمهم لقبول تطوعى بالصفة المدنية بقوات الكوماندوز والمجموعة ٣٩ قتال بعد نكبة يونيو ١٩٦٧م للعمل خلف خطوط العدو فى سيناء المحتلة.

وتجدر الإشـارة هنا إلى أن طلب التطوع كان السبب فى الاقتراب للمرة الثانية من عالم الرئيـس عبدالناصـر فبعد أن رفض الفريق أول محمد فـوزى وزير الحربية طلب تطوعى، قـرر اللواء محمد صادق مدير المخابرات الحربية عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر الذى وافق عليه.

والانخراط فى العمل الفدائى لمقاومة الاحتلال الإسرائيلى هو الاستمرار المنطقى للاشتراك فـى مواجهة قـوات الاحتلال الانجليزى عام ١٩٥١م، وهـذا التخصص هو الذى أتاح لى الاقتراب من المشير عبدالحكيم عامر وأنور السادات وبناء علاقة بحسنى مبارك بالإضافة إلى كل من الملك فيصل والملك فهد والمشير عبدالله السلال ونائبه الفريق حسن العمرى والعقيد معمر القذافى ونائبه جلود وباقى قادة الثورات الليبية وياسر عرفات وصدام حسين والشيخ زايد وأمير الكويت وتيتو وسوهارتو وماوتسى تونج وأولبريشت وهيلموت كول وغيرهم.

وبما أن لقاء الملك فيصل كان السـبب فى أول لقاء لى مع الرئيس عبدالناصر سـأعود إلى أوراقى لأروى حكاية هذا اللقاء.

اجتمـع مجلـس تحرير الأخبار صباح اليـوم التالى لتوقيع اتفاقية جـدة وكان من بين القرارات التى اتخذها بالإجماع سـفرى إلى السـعودية لمتابعة الموقف السـعودى من تنفيذ الاتفاقية التى اسـتهدفت حل المشكلة اليمنية التى بدأت بانقلاب السلال على حكم أسرة حميد الدين يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م ثم تحولت إلى مستنقع لاستنزاف مصر ماديا وبشريا. وهنا يجب أن نشـير إلى أن مصر كانت تخسـر يوميا أكثر من خمسة ملايين دولار بجانب خسـائرها من الأفراد والأسـلحة والمعدات وأدى التدخل العسـكرى المصرى الذى بدأ فى أعقـاب نجاح الانقلاب العسـكرى إلى تدخل أطراف أخرى إقليمية مثـل المملكة العربية السعودية وإيران والأردن وإسرائيل وعالمية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وأصبح الهدف الرئيسى لكل هذه القوى هو حصار التدخل المصرى واستنزاف عبدالناصر ونظامه.

وفى وقت قصير نسـبيا تسـلمت من إدارة الأخبار تذكرة السـفر «وفاوتشـر» يسمح لى بالتنقل داخل المملكة على طائرات الخطوط السعودية وبدل السفر وبطاقة للاتصال التليفونى بالجريدة دون سـداد نقود بالخارج collect وكان تقديرى أننى سـأحصل على التأشيرة دون إبطاء إلا أن السفارة السعودية احتاجت ما يقرب من ثلاثة أشهر لكى أحصل عليها.

وقبل الوصول إلى جدة سـألت عن الفنادق الموجودة بها فأخبرونى بوجود فندقين الأول

«الكندرة» والثانى «قصر البحر الأحمر» ولأن الأخير كان يطل على البحر وقريب من السوق الرئيسى بالمدينة فقد اخترت الإقامة به وبعد أن أقمت فى جدة تبينت أننى الصحفى المصرى الوحيد الموجود بالسعودية والمكلف بمثل هذه المهمة وبالتالى كنت على بينة من أن السلطات ستفرض رقابة على تحركاتى واتصالاتى التليفونية بسبب الحذر والشك فى صحفى يعمل فى صحافة عبدالناصر الذى عادى المملكة بل وكل نظم الحكم الملكية باعتبارها نظما رجعية تقف فى معسكر الإمبريالية ومع ذلك كنت فى حاجة إلى لقاء كل المسئولين سواء من داخل الأسرة السعودية أو خارجها الموجودين فى جدة قبل الانتقال للعاصمة الرياض للقاء الملك الذى يعد الهدف الرئيسى لهذه المهمة الصحفية. وفى جدة التقيت بالأمير عبدالله الفيصل الابن الأكبر للملك والشاعر الكبير والشيخ كمال أدهم شقيق زوجة الملك ومدير المخابرات السعودية بالإضافة إلى عدد من الوزراء الموجودين بجدة ورجال الأعمال وفى مقدمتهم سالم بن محفوظ المالك الرئيسى للبنك الأهلى السعودى والذى يعد فى قائمة الرجال الأكثر ثراء فى المملكة والذى يلعب دورا رئيسيا فى المجال الاقتصادى.

كما التقيت بالمالك صاحب النسبة الأكبر من رأسمال الفندق رجل الأعمال المصرى وعميد الجالية المصرية بالمملكة حسن آدم وعرض على التوسط للقاء الملك ولكننى أخبرته أننى أفضل أن أسلك الطريق إلى هذا اللقاء وحدى وعبر القنوات الرئيسية بالمملكة خاصة وزير الإعلام. ثم علمت فيما بعد أن آدم عديل الملك فيصل وصاحب مركز متميز داخل الأسرة الملكية. وفى مكتبه التقيت بالفنان سعد عبدالوهاب الذى اختار الإقامة لفترات طويلة بالمملكة وبفندق قصر البحر الأحمر واصطحبنى الفنان الكبير لسهرات فى بيوت عدد من الأمراء السعوديين وكثيرا ما تحولت هذه السهرات إلى ندوات ثقافية تمتد حتى ساعات الصباح الأولى.

واللافت للنظر أن أحدا من الحاضرين لم يطرح قضية سياسية للنقاش بالرغم من تعدد السهرات والمجاملات.

وكانت المجاملة والتحفظ طابع معظم هذه اللقاءات باستثناء اللقاء مع الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم.

وقد حرص الأمير والشاعر عبدالله طوال اللقاء على اختيار كلماته وهو يعبر عن موقفه

من عبدالناصر ونظامه وعلى الفصل دائما بين مصر وحاكمها وعلى تأكيد صداقته بعدد كبير من المثقفين والفنانين والكتاب والصحفيين المصريين.

وقد توقف الحوار بيننا عندما قال إنه مستعد للانفاق حتى آخر هللة «مليم تقريبا» من ماله حتى يركع عبدالناصر.. وكانت إجابتى «أن عبدالناصر لن يركع».

والمثير للدهشة أن الحوار مع الشيخ كمال أدهم انتهى بنفس الصورة فقد قال الجملة نفسها التى قالها عبدالله الفيصل ولم تختلف إجابتى.

كان الرجلان حادين فى عدائهما للرئيس عبدالناصر ولم يحاولا إخفاء هذا العداء ولم يناورا، وحمدت لهما شجاعتهما الأدبية ورأيت أن هذا الموقف هو أول القصيدة، وأن اتفاقية جدة أو عشر اتفاقيات من هذا النوع من الصعب أن تحقق أى نجاح على أرض الواقع. وكان تقديرى خاصة بالنسبة لكمال أدهم أنه رجل يعلم حقيقة اتجاهات السياسة السعودية إن لم يكن يقبض بيديه على بعض خيوطها من خلال موقعه المتميز على رأس جهاز المخابرات العامة السعودية وأيقنت أن وقت التوجه إلى الرياض قد حان. وهناك بالعاصمة التقيت بالشيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام وقتذاك وحاول الرجل إقناعى بقبول استضافة المملكة لى واعتذرت موضحا أننى كصحفى مصرى فى صحافة مملوكة للحكومة أفضل أن أتحمل تكاليف إقامتى من باب الحذر والوقاية من شكوك أجهزة الأمن القوية.

كما أن المسئولين بالقاهرة قد يسيئون فهم قبولى هذه الضيافة. فتفهم الرجل وابتسم ثم حاول تقديم هدية لى كانت تحمل وقتذاك اسم «خلعة» عرفت فيما بعد أنها تضم سبحة وعباية فخمة ومبخرة وطاقم أقلام وسجادة للصلاة ولكننى اعتذرت برقة شديدة.

وبعد حوار حول اتفاقية جدة التزم فيه الرجل بالموقف الرسمى، ولم يحاول أن يخصنى بمعلومات من تلك التى يطلب فيها المسئولون عادة عدم نشرها لأنها للعلم فقط Offrecord.

وطلبت منه أن التقى بالملك فقال ببساطة اذهب والتقى بالملك ودق الجرس فحضر سكرتيره فطلب منه أن يصحبنى المرافق لى الآن إلى القصر الملكى والتفت إلى مودعا وداعيا لى بالتوفيق.

وأمام القصر توقفت السيارة، وقال المرافق السعودى إنه يمكننى الدخول ولقاء الملك وتركنى وانصرف.

وأمام هذه المفاجأة التى لم أتوقعها كان على أن اتخذ قرارا إما الدخول الآن وإما العودة إلى وزارة الإعــلام أو العــودة إلى الفندق وبما أننى أمام القصر وبما أن الوزير والمرافق أوضحا لى أنه يمكننى لقاء الملك فقد قررت الدخول والتصرف وفقا لما ســوف أواجهه داخل القصر الملكى من مواقف.

❑❑❑

حوار مع الملك فيصل (٢)

عندمـا طلبت من الشـيخ جميل الحجيلان وزير الإعلام السـعودى مقابلة الملك فيصل من أجل إجراء حوارٍ صحفى للنشـر بجريدة الأخبار المصرية، وافق الرجل فورا وتصورت أنه سـيجرى اتصالاً بالقصر الملكى لتحديد موعد لهذا اللقاء وقبل الموعد سيمر على المرافق السـعودى بالفندق ليصحبنى للقاء الملك، وسـينتظر بمكتب رئيـس الديوان الملكى إلى أن ينتهـى اللقـاء ليعود بى إلى الفندق أو للقاء الوزير إلا أن كل ذلك لم يحدث وقال لى الوزير اذهب وقابل الملك. وطلب من المرافق أن يصحبنى إلى القصر الملكى. وهناك أمام بوابة القصر قـال لى المرافـق ادخل وقابل الملك وتركنى وانصرف. ومن قلب الدهشـة والحيرة والمفاجأة قـررت أن أدخل القصر. وليكن ما يكون واجتزت البوابة الرئيسـية والحديقة الصحراوية التى تضم عددا من أشجار النخيل والنباتات الشوكية وبقايا مساحات خضراء طغت عليها الرمال. ثم دلفت من الباب الرئيسى. وأنا أتعمد عدم النظر إلى من ألتقى بهم وكان اللافت للنظر عدم وجود حراسـة أو أفراد أمن أو أسـوار أمنية لمنع الدخلاء مثل تلك التى أعرفها فى مصر. وسرت قليلا فى الممرات فوق سجاد أحمر اللون. وقلت لنفسى سوف أعرف مكان مكتب الملك ومكاتب المديرين من خلال هذا السجاد وحرصت على ألا أسأل أحدا حتى لا أواجه بسؤال أو بأسئلة من أى نوع. ولكن كان واضحا لكل من يمرون بجوارى أننى لست سعوديا لأننى الوحيد الذى يرتدى حلة وربطة عنق ويحمل جهاز تسجيل على كتفه. ومع ذلك لم أسأل أو أستفسر وواصلت السير فى الممرات وفى إحداها وجدت أن السجاد ازداد سمكه فاسـتنتجت أننى بالممر الذى يقود إلى مكتب الملك وما أن سرت قليلاً حتى وجدت نفسـى أمام مكتبين متقابلـين أحدهما له باب جانبى أى على ممـر آخر وبابه مفتوح أما الآخـر فبابه مغلق. فأدركت أنه مكتب الملك أما الثانـى المفتوح فمكتب مدير مكتبه وكان اسم الرجل قد تردد كثيرا فى لقاءاتى السابقة باعتباره المسئول عن مكتب الملك وقررت أن أدخل المكتب وسـألت الجالس عليه عن الشـيخ أحمد إبراهيم فقال إنه هو فقدمت نفسى إليه فطلب منى الجلوس وأمر بالقهوة وكلما انتهيت من شـرب هذه الرشـفات من القهوة

العربية قدموا لى المزيد وطال الوقت قليلا فتوجهت إلى مكتب الرجل لأسأل متى سأقابل طويل العمر جلالة الملك فطلب منى الانتظار مع وعد بأننى سأقابله.

وجلست مع الجالسين الذين تزايد عددهم وبعد فترة فتح الشيخ الباب المطل على الممر الرئيسى والمواجه لمكتب الملك الذى كان مفتوحا وطلب من الجميع أن يتفضلوا إلى مكتب طويل العمر ووجدت أن من دخلوا قد جلسوا على المقاعد الجانبية بالمكتب المتسع المساحة الذى يتصدره المكان الذى جلس فيه الملك.

وظل الرجل يستقبل الحاضرين فردا فردا وبعد أن يستمع إليهم يصدر أوامره همسا وبما يفيد استجابته لمطالبهم.

وبعد قليل قال فليتفضل الصحفى المصرى ويجلس بالقرب منى واتجهت إلى حيث أشار ثم خاطبنى قائلا: إنه سينظر فى مصالح الناس إلى أن أنتهى من شرب قهوتى.

وحتى لحظة جلوسى بالقرب من الملك ثم بجواره لم أمر بأى إجراءات أمنية ولا حتى بمكتب للاستعلامات ولم يسألنى أحد إلى أين؟ أو من أين؟ أو من أنا؟

وأخيرا أشار الملك لكى أجلس بجواره. وسألنى عن أحوالى وكيف أجد الإقامة فى المملكة ومن ثم فتح الباب أمامى لأستأذنه فى إجراء حوار معه فأشار إلىّ أن الشيخ جميل أخبره أننى رفضت هدية فأجبت بسرعة إن هديتى الحقيقية هى الحوار مع جلالته.

وقبل أن أطرح أسئلتى استأذنته فى تسجيل الحوار، وأذن الملك وكانت البداية ما سمعته من الأمير عبدالله الفيصل والشيخ كمال أدهم، فاستنكر الملك ما قالا، ووصف الأول بأنه ولد وقال عن الثانى إنه تركى لا علاقة له بسياسة المملكة، وكانت بداية غاية فى السياسة والذكاء والبراعة والاقتدار، كان الاستهلال رائعا وتوالت الأسئلة حول الأوضاع فى اليمن واتفاقية جدة والموقف فى العالم العربى وإسرائيل والقضية الفلسطينية والنفوذ الغربى فى المنطقة ومستقبل الصراع الإقليمى والدولى حول الشرق الأوسط فى ظل الحرب الباردة أو محاولات الاستقطاب الحادة التى يقودها المعسكران الشيوعى والرأسمالى.

كانت قائمة الأسئلة طويلة وكنت قد استغرقت وقتا طويلا فى إعدادها، وكان من الضرورى أن أقرأ عشرات الملفات والكتب والدراسات والوثائق فقد كانت المرة الأولى التى يلوح فى الأفق احتمال لقاء وحوار مع الملك فيصل ولم أكن أريد أن تكون الفرصة المتاحة هى الأخيرة، كنت أتمنى لنفسى النجاح وأن تتكرر المهام التى تقود إلى ما هو أفضل.

وبجانب الاستغراق فى الملفات والأوراق، سعيت للتعرف بشكل أفضل إلى شخصية الملك فيصل خاصة بعد أن تمكن من إزاحة سعود والحلول محله.

ولقد كانت هناك أسباب موضوعية من وجهة نظر الأسرة السعودية تتطلب عزل الملك سعود وإسناد المسئولية لفيصل. فقد اتسم أداء سعود بالارتجالية والتخبط والتهور منذ أن تفجرت أحداث اليمن كما كان عاشقا للذة والنساء ومحبا للحياة المنطلقة التى لا تعرف القيود فى حين عرف عن فيصل الحكمة والتقشف والزهد والذكاء.

ولأن فيصل كان مريضا خاصة بالقرحة المعدية فقد فرض عليه الأطباء نظاما غذائيا خاصا يخلو من الدهون والتوابل ويعتمد بشكل أساسى على الأطعمة الخفيفة السهلة الهضم مع مراعاة تناول كميات محدودة فى كل وجبة وبجانب هذا النظام الغذائى كان عليه أن يلتزم بحياة معتدلة وبعيدة عن الإغراق فى المتع الحسية.

وقد ناسبته هذه الحياة المتقشفة لأنه بطبيعته هادىء ومحب للاستقامة والاعتدال.. وكان قد تعلم من ماضيه وخبراته أن يكون كتوما وألا يثق فى أحد وأن يعمل ويفكر وحده دائما وإن تطلب الأمر كان يلجأ لاستشارة من هم أهل للإستشارة. ومن ميزاته أنه فى قراراته لا يعرف الاندفاع أو التهور وكان باستمرار رجل الأزمات فى المملكة كما كان موضع ثقة والده الملك عبدالعزيز.

كل ذلك أسهم فى تكوين صورة إيجابية عنه فى أذهان الناس بجانب السمعة الطيبة.

ومنذ البداية قرر أن يتحرك ويعمل على عدة محاور فى الوقت نفسه. ولكن كان عليه أن يجمع كل خيوط السلطة فى يده. وألا يسمح بوجود قوى مناوئة أو معارضة سواء داخل الأسرة السعودية أو بين صفوف المواطنين.

بدأ بالأمراء المعارضين أو المناوئين أو هؤلاء الذين سحرتهم دعاوى القومية العربية والأحلام الوحدوية بجانب الذين أضيروا أو أضيرت مصالحهم من جراء عزل الملك سعود. وبالرغم من أن الرئيس المصرى قد استغل الملك سعود وهو بالمنفى فى معركته مع المملكة السعودية والملك فيصل بأن استقبل سعود فى مصر واحتفى به حفاوة بالغة ودفعه للقيام بزيارة لليمن للتدليل على انقسام الأسرة السعودية وللتلويح لفيصل بقدرته على استخدام سعود للتآمر على العرش السعودى وحرمان فيصل من الإحساس بالاستقرار فإن الملك السعودى واجه الموقف بكثير من الصمود.

وبذكاء استغل فيصل الخطأ الذى وقع فيه سعود لحصار وعزل ونفى عدد من الأمراء خاصة من أبناء سعود وأنصاره.

ولم يكن عسيرا عليه تقليص نفوذ عدد آخر من الأمراء المشايعين للعروبة أو المعارضين خاصة وهو يملك قدرات وإمكانات هائلة لممارسة الضغط عليهم سواء بسياسة المنح أو المنع أو بتحريك قوى من داخل الأسرة السعودية للتأثير عليهم مع التلويح بالمخاطر التى تهدد المملكة.

أما بالنسبة لكبار الأمراء الذين يتحملون مسئوليات مباشرة فى الدفاع عن المملكة وفى صياغة السياسات وصناعة القرارات. فقد عمد إلى تحقيق توازن فى القوى. بمنع انفراد أى منهم بالسيطرة على قوة عسكرية توفر له القدرة على ممارسة أى ضغوط أو التلويح بها.

ويعتبر الملك فيصل المهندس الرئيسى لسياسة توازن القوى داخل الأسرة السعودية بل وداخل المملكة، ولما كان سلطان هو وزير الدفاع المسئول عن القوات المسلحة السعودية فقد كان ذلك يعنى أنه القائد الحقيقى وصاحب النفوذ القوى سواء داخل المملكة أو بين أبناء الملك عبدالعزيز ولأن فيصل كان فى سبيله لعقد صفقات سلاح ضخمة لدعم قدرات القوات المسلحة، خاصة القوات الجوية والدفاع الجوى وإنشاء قواعد عسكرية خاصة على الحدود الشمالية لليمن فقد استغل الموقف وضاعف ميزانية وزارة الداخلية لكى تتوسع فى مجال القوة البشرية والسلاح والخبرات الفنية والتكنولوجية.

وعلى ضوء هذه السياسة أصبحت القوى العسكرية التابعة لوزارة الداخلية قوة يعتد بها وفعل مع قوات الحرس الوطنى السعودى ما فعله مع وزارة الداخلية.

وهكذا أصبحت هناك ثلاث قوى عسكرية بالمملكة على رأس كل منها أمير من أصحاب السطوة والنفوذ. وبهذه القوى المستقلة نسبيا والموزعة والمنتشرة فى أنحاء المملكة والقوية التسليح وإن لم تكن متكافئة تماما تحقق التوازن بالمملكة وداخل الأسرة الحاكمة وأصبحت كل قوة تنظر للقوة الأخرى بكثير من الاعتبار.

وبهذه السياسة حافظ فيصل على تماسك الأسرة وأمن مخاطر الانقسام أو بروز مركز أو قوة قادرة على ممارسة أى نوع من الضغوط.

أما معركته الأخطر داخليا فكانت مع جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر القوية والمسيطرة استنادا إلى دورها وتأثيرها الدينى والأهم إلى التحالف القائم بين الأسرة السعودية

ومؤسس المذهب الوهابى والذى شكل نقطة الانطلاق لإنشاء الدولة السعودية فى منطقة شبه الجزيرة العربية.

وأهم ما فى هذا التحالف تقاسم السلطة بين الطرفين.. السلطة الزمنية أو السياسية للأسرة السعودية والسلطة الدينية للشيخ محمد بن عبدالوهاب وآل الشيخ من بعده أى أسرته.

كان الملك يدرك أن الجماعة تقف عقبة أمام أية محاولة لتطوير وتحديث المملكة وأن أى إصلاحات ستواجه بمعارضة قوية وواسعة النطاق من جانب هذه الجماعة، وكان قراره ضرورة المواجهة، وما أن اعترضت الجماعة على خطته الخاصة بتعليم البنات حتى أمر بوقف مخصصاتها المالية، ومضى فى طريقه وأمر بفتح أبواب المدارس أمام البنات وبتوفير الحماية الكافية لهن ولأهاليهن ومعاقبة كل من يحاول من أعضاء هذه الجماعة التعرض لهن أو الاعتداء عليهن بأية صورة من الصور.

وأدركت الجماعة أنها تخوض معركة وجود ضد الملك فيصل ولم يكن مطروحا أن تستسلم أمامه وأمام أفكاره التى ترى أنها تتعارض مع التقاليد الراسخة للمجتمع السعودى بل ومع الدين من وجهة نظرها.

ومع ذلك لم يكن أمامهم سوى التراجع حرصا على المخصصات المالية وكسب فيصل هذه الجولة.

وسرعان ما دقت المعركة الثانية الأبواب وكان ميدانها الإذاعة.

ومنذ عرفت السعودية البث الإذاعى ظل الأمر مقصورا على إذاعة القرآن الكريم والتفاسير والأحاديث النبوية والشروح الخاصة بالمذهب الوهابى.

وبمثل هذه الإذاعة لم يكن ممكنا للسعودية أن تثبت فى مواجهة أعاصير الإذاعة المصرية أو غيرها من الإذاعات خاصة بعد أن انتشرت أجهزة الراديو الرخيصة السعر.

ولم يكن الملك فيصل ليقبل أن يترك المواطنين السعوديين لقمة سائغة للإعلام الناصرى، فأمر بتطوير الإذاعة وبدأ بإذاعة أغانى للمطربين الرجال خشية من أن يثير صوت المطربات مشكلة يصعب مواجهتها فى تلك المرحلة المبكرة من خطة التطوير.

كانت القضية مرتبطة بالأمن القومى السعودى وبالصراع مع كل القوى العربية والإقليمية المناوئة صاحبة الخط الثورى الذى يستهدف القضاء على الممالك العربية لا المملكة السعودية فقط

باعتبارهـا قوى رجعية تخدم مصالح الاسـتعمار والإمبريالية. لم تكن القضية هنا قضية خلاف بين ملك مصلح وجماعة محافظة، بل بين الاستقرار وعدم الاستقرار، بين البقاء وعدم البقاء.

ومن أجل هذه الرؤية الصحيحة سياسيا واستراتيجيا وإعلاميا خاض الملك هذه المعركة باعتبارها جزءا من الصراع مع مصر وباقى القوى الثورية العربية.

ولم تبـد الجماعة أى ردود أفعـال فى البداية بعدها اسـتخدمت الإذاعة مذيعات من الإناث وكان من بينهن ابنة وزير الإعلام وقتذاك الشـيخ جميل الحجيلان ثم انتهى الأمر بإذاعـة أغانـى للمطربات ولم يجرؤ أى من أعضاء الجماعة علـى الاعتراض والصياح بأن صوت المرأة عورة أو فسـق أو أن الأمر كله مخالف للدين والتقاليد أو أن الأغانى من عمل الشيطان لأنها تلهى الناس عن الصلاة وعن الذكر خشية من قطع المخصصات المالية بشكل نهائى.

ولكن الجماعة لم تلتزم الصمت عندما بدأوا العمل فى إنشاء محطة للإرسال التليفزيونى فقد تحركت بسـرعة وكسـبت فى صفها عددا من الأمراء وخططت للهجوم على المحطة وتدمير الهوائيات الخاصة بها وكانت الأوامر الصادرة لقوة الحراسـة تقضى بإطلاق نيران فى الهواء للتحذير والإنذار إذا ما اقترب المهاجمون من مبنى المحطة بعدها توجه النيران إلى المهاجمين إذا ما استمروا فى التقدم.

وعلى مقربة من المبنى سقط أحد الأمراء قتيلا. وانسحب المهاجمون.

وفى النهاية تراجعت الجماعة عن خططها الخاصة بمعارضة الملك علنا.. وهكذا سيطر فيصل على الجماعة وأحكم قبضته عليها.

ولجـأ الملك إلى سياسـة الإنفاق العام ليدعم مكانته وليكسـب شـعبية لمسـاندة موقفه وسياساته.

وفى هذا الإطار عمل على توفير الخدمات وبناء المدارس والمستشـفيات وإنشـاء الطرق. هذه السياسـة وفرت آلافا من فرص العمل وفتحت الباب أمام شـركات المقاولات للإثراء وهكذا تدفقت أموال سائلة كثيرة إلى جيوب المواطنين، وبما شكل قوة شرائية هائلة أسهمت فى إحداث رواج بالسوق.

أما بالنسبة للصحافة فقد خطط الملك للسيطرة عليها بتأميمها عبر قانون للصحافة. كان الملك ينهج نهجا معاديا للاشـتراكية والفكر الاشـتراكى ومع ذلك لجأ لتأميم الصحافة وقد

قبل بهذا التناقض طالما يحقق له أهدافه المتمثلة فى سيطرة تتيح انطلاق حملة قوية على الفكر القومى والتوجه الاشتراكى ولم تخيب الصحافة ووسائل الإعلام ظن الملك، وشنت هجوما شرسا وشاملا وقويا على الفكر الاشتراكى، ومزجت بين الاشتراكية والإلحاد، وأوضحت بجلاء أن هذا الفكر ينكر وجود الله والأديان كلها.

وطوال هذه الحملة تجنبت وسائل الإعلام الهجوم على القاهرة أو عبدالناصر بشكل مباشر. ولكى يبرز الملك فيصل اقليميا وعالميا كحاكم قوى وند لعبد الناصر ونظامه كان من الضرورى العمل على عدة جبهات الأولى إعلامية عالمية والثانية عربية والثالثة إقليمية والرابعة فكرية وعقائدية، وعلى الجبهة الإعلامية أبرزت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية الملك فيصل كقائد حكيم يقود نظاما مستقرا ودولة رائدة، ويعمل من أجل الاستقرار فى العالم العربى ومنطقة الشرق الأوسط التى تغلى بالاضطرابات بسبب تطرف النظم الثورية وحكامها المغامرين الذين يدورون فى الفلك السوفيتى.

وبالنسبة للجبهة العربية عمد الملك إلى دعم النظم الملكية وإعادة بناء التحالف فيما بينها بشكل يجعل تحركها أكثر فاعلية وتأثيرا.

واستند التحالف إلى توثيق التعاون والعمل المشترك ضد النظم الثورية وضد الوجود العسكرى المصرى فى اليمن.

وفى الوقت نفسه حرص فيصل على الاحتفاظ بشعرة معاوية مع باقى دول المنطقة التى ليست ملكية والتى عرفت بأنها ثورية، وكان بذلك يحاول إقامة شرخ فى العلاقات بينها وبين مصر مستغلا فى ذلك الجفوة بين النظامين السورى والعراقى ونظام عبد الناصر ومواقف البعثيين فى البلدين من الرجل خاصة بعد أحداث الانفصال السورى عام ١٩٦١م والشكوك العراقية المصرية المتبادلة والتى ترسخت خلال فترة حكم عبدالكريم قاسم.

وانطلق الحاكم السعودى على المسرح الإقليمى بقبوله دعوة لزيارة إيران حيث أعد له الشاه استقبالا حافلا اراد له أن يحمل الكثير من الدلالات وأن تقرأ القاهرة أن كل من طهران والرياض يشكلان حلفا قويا يقف فى وجه مخططاتها وأحلام حاكمها الإمبراطورية التوسعية.

خلال الزيارة تقاسم الشاه وفيصل مناطق النفوذ فى منطقة الخليج ولم يقف العاهل السعودى فى وجه أطماع الشاه فى المنطقة وفى الوقت نفسه وافق الشاه على دور ونفوذ للسعودية.

وفــى مجال المعركــة الفكرية والعقيدية رفع الملك فيصل بقوة شــعار العمل الإســلامى والإســلام ليواجه الفكر القومى والعمل الوحدوى. وهذا الشــعار ســبق أن رفعه وتبناه الملك سعود اعتبارا من عام ١٩٥٧م.

وبما أن الســعودية هى الأرض التى تضم الحرمين الشريفين، الكعبة بيت الله والمسجد النبوى، فقد توفرت لها قاعدة راســخة لرفع وتبنى الشــعار الإسلامى وقد وجدت أنصارا كثيرين بين دول العالم الإسلامى وما منظمة المؤتمر الإسلامى إلا أحدى تجليات هذا النهج.

وفــى هــذا الإطار خطت المملكة خطوات واســعة لدعم وتمويــل كل القوى والمجالات والمنظمــات والأحــزاب الإســلامية فى دول العــالم. ولم تكن مصر بعيدة عــن هذا التوجه السعودى بل كانت فى القلب منه.

وبالوصــول إلى هــذه المرحلة توفرت الظروف الملائمة للمناورة ضــد الرئيس عبد الناصر واستغلال تورطه فى اليمن للضغط عليه وكشف عورات نظامه.

وســرعان ما تبنت السعودية مجموعة من طروحات الســلام كمرحلة من مراحل العمل التى تستهدف إحراج مصر وعبد الناصر.

وعلى هذا الطريق جاءت اتفاقية جدة عام ١٩٦٥م ويمكن القول إن كلا الطرفين لم يكن راغبا فى التوصل إلى حل جذرى للقضية، وكان كلاهما يناور لكســب الوقت على أمل أن تتاح له فرصة لتحقيق انتصار عســكرى حاســم يجعله فى موقع أفضل للمساومة أو إنجاز على المسرح السياسى يضعه فى موقف تفاوضى أفضل.

وخلال الحوار الذى أعددت نفســى له طوال الفترة التى ســبقت اللقاء قال الملك فيصل كلامــا طيبــا فى حق الرئيس جمال عبد الناصر ووصفه بأنــه يعمل من أجل التقدم العربى ولا يبخــل بأى مجهــود لإنجاز هذا الهدف وقال إنه يدرك أن ما يقوله الرئيس جمال فى خطبه العامة ليس أكثر من كلام للاســتهلاك المحلى ولا يقصد به أبدا الإســاءة لأى حاكم أو شخصية عربية.

وطوال فترة الحوار ظل يذكر عبد الناصر بكل الخير. ويلتمس له الأعذار.

وعــن نتائج مؤتمر جدة قــال بوضوح إنه حريص مثله فى ذلك مثل الرئيس جمال على حل المشــكلة اليمنية التى وصفها بأنها تطورت وأصبحت أكثر تعقيدا. وطوال الحديث لم تتغير نبرة الملك وظل هادئا ووقورا ورائعا ونبيلا وصبورا.

وبعد أن طرحت أسئلتى الرئيسية تبينت أننى قد مكثت طويلا وأنه آن الأوان للتوقف حتى وإن كانت هناك أسئلة لم أطرحها بعد.

وشــكرت الملك بحرارة وغادرت مجلســه وأنا أشــعر بالامتنان فالحوار مع الملك فيصل والذى يعد أول حوار مع حاكم عربى بالنســبة لى يمثل خطوة رئيســية ومهمة على طريقى المهنى وكنت فى تلك اللحظة أراه إنجازا كبيرا.

ورأيت أن أعجل بالعودة إلى القاهرة ولكن بعد أن أزور قبر الرســول المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد كنت قد اعتمرت أكثر من مرة ولكن لم أقم بمثل هذه الزيارة. ومن الرياض توجهت إلى المدينة المنورة ومن هناك عدت إلى جدة وعلى أول رحلة طيران، كانت العودة إلى القاهرة، كانت الطائرة تحلق فوق السحاب وكنت أحلق فى سماء الأحلام والأمانى.

❑❑❑

الفصل الثانى

عبد الناصر وأنا.. وجها لوجه للمرة الأولى

بعــد أن تمكنت من إجراء حديث مع الملك فيصل قــررت التعجيل بالعودة إلى القاهرة ســعيا وراء نشره وقطف ثمار هذا النجاح فالحديث كان الأول للملك منذ اللقاء مع الرئيس جمال عبدالناصر بمدينة جدة فى أغســطس عام ١٩٦٥م والذى تم تتويجه بتوقيع اتفاقية لإنهاء المشكلة اليمنية التى استنزفت موارد مصر الاقتصادية وتحولت إلى مستنقع كبير لمصر وقواتها المســلحة وبالرغم من اللقاء مع مسئولين ســعوديين آخرين، إلا أن التعجيل بنشر حديث الملك هو الأكثر جدوى.

وبتعجيلى العودة كنت أعرف أننى ســأفتقد الصحبة الجميلة للفنان ســعد عبدالوهاب جــارى فــى الفندق، وكان قد قرر تجربة حظه فى الســعودية بعــد نجاحه فى مصر وكنا نجتمــع أحيانا فى المســاء مع عدد مــن أصدقائه من البيت الســعودى وغيرهم من نجوم المجتمع فى جدة من المصريين والســعوديين وبمثل هذه الصحبة تضاءلت مشــاعر الغربة طوال فترة الزيارة.

وخــلال هذه الفــترة كان من الصعوبة بمكان إجراء اتصــال تليفونى وإملاء الحديث أو أى تقاريــر صحفية كما أن إرســال المادة الصحفيــة بالفاكس لم يكن متاحا لأنه لم يكن قد تم التوســع فى استخدامه مثلما هو الحال الآن ومع أنه كان فى إمكانى اللجوء إلى السفارة المصرية لإرســاله عبر شــبكتها اللاســلكية إلى مقر الوزارة بالقاهرة ومنها يتم إرســاله إلى الجريدة إلا إننى لم أكن أريد للســفارة أن تعرف بما دار بينى وبين الملك الســعودى. لذا كانت العودة هى الاختيار الأنسب.

وكنت أحمد الله ســرا وعلنا على لقاء الملك السعودى والفوز بهذا الحديث ولأنه وفقنى إلى إنجاز يجعلنى أشــعر أننى لم أخذل هؤلاء الأســاتذة والزملاء الذين رشحونى بالإجماع فى مجلس التحرير للسفر فى هذه المهمة. ووفقا لما أجريته من حسابات رأيت أن الحديث

صالح جدا للنشر. بل يعد خبطة صحفية كبيرة خاصة أن ما ورد على لسان الملك فيصل من مديح وتقدير للرئيس جمال عبدالناصر يعد قوة مساندة لفكرة النشر ومثل هذه الحسابات كانت تفتقد للخبرة الصحفية والفهم الجيد لمجريات الأمور والأهم فهم شخصية الرئيس عبدالناصر بكل عمقها وأبعادها وجوانبها الظاهرة والخفية.

كان العود مازال أخضر وقد تغلب الطموح والحماس على ما أجريته من حسابات، أما حسابات مصطفى أمين فكانت أكثر عمقا وأبعد أدراكا فقد توقع أن الرئيس سيكون له موقف آخر، والاحتمال الأرجح إن لم يكن المؤكد أنه سيرفض نشر مثل هذا الحديث.

وكان مصطفى «بك» على بينة من أن ما جاء على لسان الملك سيضيء للرئيس أبعادا كانت خافية عليه وسيكشف له جوانب جديدة فى شخصيته بالإضافة إلى إزاحة الستار عن صور من حنكة فيصل.

أما صورة الملك العف اللسان المتسامح الذى يتجاوز عن الإساءات التى نالت منه علنا والتى وردت فى خطب الرئيس عبدالناصر ومنها «ننتف ذقنه» ويزجى المديح فى الوقت نفسه لمن أساء إليه ويلتمس له الأعذار فقد رأى مصطفى أمين بخبرته وفطنته وحصافته وذكائه أنها تدعم صورة الملك فيصل لدى المصريين والعرب وتضيف إليها عددا من الصفات الايجابية وأن ذلك سيكون خصما من رصيد عبدالناصر ومن ثقة الجماهير فيه، كما أن النشر سيجعل من المقارنة، بين من يشتم ومن يمدح ومن تجرى على لسانه الألفاظ النابية والملك العف اللسان، ما لا يريده الرئيس المصرى حرصا منه على صورته الجماهيرية ومكانته، وأيضا على سياسته وتوجهاته التى تتصادم مع سياسة الملك والمملكة.

لذا قرر إرسال الحديث كما كتبته لكى يطلع عليه عبدالناصر ويقرر ما يراه. ،كنت جالسا على مقعد أمام مكتب مصطفى أمين وأحاول أن أقرأ ملامح وجهه وهو يقرأ ما كتبت. فى أحيان كنت أراه مندهشا وأحيانا أخرى ينظر إلىّ نظرة سريعة مشفقا علىّ ومرة أخرى معجبا بتلميذه وفى النهاية قال بعد أن أبدى إعجابه بما كتبت. إنه يجب أن يرسل الحديث للرئيس عبدالناصر وطلب منى ألا أغادر المبنى دون أن أخبره، واستجبت لطلبه، وظللت أترقب نتائج إرسال الحديث للرئيس بقلق وتوتر وخوف وكنت أتساءل وأين الخطأ؟

تبخرت وبسرعة أحلام النشر، وتبعثرت ثمار الإنجاز، ولم يبق سوى الوساوس والمخاوف واستعدت ما كتبت مئات المرات ولم أجد سببا لما أعانيه من مخاوف، ولكن

القضية ليســت ما أراه بل ما يراه عبدالناصر وبعد فترة وجدت أصواتا كثيرة تنادى، عبده «مصطفى بيه عايزك» فصعدت إلى الدور التاســع حيث يوجد مكتبه وما أن فتحت الباب حتى طلب منى التوجه بسرعة إلى مكتب الرئيس بمنشية البكرى.

وطوال الطريق تناوشتنى المخاوف وتعددت سيناريوهات هذا الموقف الذى لم أتوقعه ولم أحســب له حســابا وكنت بين الحين والحين أطمئن على وجود شريط التسجيل الخاص بالحوار فى جيبى ووجود فواتير الإقامة فى كل الفنادق التى أقمت بها خلال هذه الزيارة ســواء فى جدة أو الرياض أو المدينة، وكنت أحمد الله على أنه ألهمنى أن اشــترى جهاز تسجيل قبل لقاء الملك واستئذان الملك فى تسجيل الحوار فعملية التسجيل والاعتماد عليها فى الكتابة وعدم الخروج عنها والاعتماد دائما على ما قاله الملك حرفيا ستؤكد أننى قابلت الملك وأن الحوار، كما كتبته موجود ومسجل كما أن الفواتير ستدحض أية ظنون أو شكوك حول الزيارة، وفى النهاية لم أجد أفضل من التسليم لله وقراءة القرآن.

وعندما وصلت منشــية الكبرى، مررت بأســوار الأمن الذى كان لديها نبأ عن وصولى. ومن صالة أو مكتب انتظار إلى مكتب آخر إلى أن وصلت إلى مكتب ســكرتير الرئيس الذى استقبلنى بجفوة واضحة وبعد قليل أى بعد أن فرغ من النظر فى أوراق أمامه والرد على عدة مكالمات تليفونية تحدث إلى مهاجما الحديث الذى أجريته مع الملك فيصل بقســوة ومتهما من يفعل ذلك بخدمة السياسة السعودية المعادية لمصر والرئيس جمال.

كان يتحدث وهو يضغط على الحروف والكلمات ثم تســاءل عن الأسباب التى دفعتنى إلى ذلــك؟ ولمــاذا ذهبت أصلا إلى هناك؟ ووصل الموقف إلى ذروته عندما قال إن الســعودية على اســتعداد لدفع الكثير من المال لكل من يقف موقف العداء من الرئيس جمال، وآثرت الصمت وإن تســاءلت بينى وبين نفســى أهذا هو أول القصيدة؟! وظللت أتقلب على جمر القلق والغضب مما قاله سكرتير الرئيس، وكثيرا ما فكرت فى الرد على هجومه إلا أن الأمر لم يتجاوز حدود التفكير، وبعد فترة لم تطل طلب منى هذا السكرتير أن أتوجه إلى مكتب «سيادة الرئيس».

وبعد أن دلفت من الباب وجدت نفسى أمام الرئيس مباشرة، صافحنى الرجل وهو ينظر بعينيه النافذتين فى عينى وكأنه يحاول قراءة ما أفكر فيه.

الرجــل قوى الشــخصية بلا جدال ويمتلك قوة حضور طاغية، ولكنه آســر وقادر على

السيطرة على أفكاره ومشاعره وبود شديد وضع يده اليمنى على كتفى اليسرى ومدها لتصل إلى الكتف اليمنى وتبينت أن طول قامته ساعده فى السيطرة على قدرتى على الحركة وبشكل يتيح له ضبط خطواتى وبدأ فى السير بخطى بطيئة داخل حجرة المكتب وطلب منى أن أحكى له قصة لقائى بالملك منذ البداية.

وبدأت أحكى منذ لحظة قرار مجلس التحرير، الذى لم أحضره، بسفرى إلى السعودية لمتابعة الموقف فى أعقاب اتفاقية جدة وقد حدث ذلك دون طلب منى بأى صورة من الصور بل ولم يكن الأمر مطروحا أمامى لكى أفكر فيه أو أطلبه وقلت له.. ربما شجعهم على ذلك ما حققته من نجاح فى عملى كمحرر عسكرى بالإضافة إلى نشاطى خارج هذا المجال ومثابرتى ووجودى بالجريدة طوال ساعات اليوم تقريبا، ومساعدتى أو تطوعى لمساعدة نائب رئيس التحرير المسئول عن الطبعة الأولى وتنفيذ أى عمل يكلفنى به إلى أن تدور آلات الطباعة.

ثم قصصت عليه قصة التأشيرة التى تأخرت من شهر أغسطس حتى شهر ديسمبر ١٩٦٥م إلى أن وصلت إلى اللحظة التى وجدت نفسى فيها واقفا وحدى أمام مدخل القصر الملكى بالرياض وسردت بالتفصيل كيف دخلت القصر وسرت فى ردهاته وممراته إلى أن وصلت إلى اللحظة التى دخلت فيها مكتب الملك وكيفية إجراء الحديث وظل الرئيس واضعا يده على كتفى بمودة شديدة ونحن نقطع حجرة المكتب سيرا على الأقدام فى خط دائرى وبعد أن وصلت إلى النهاية طلب منى أن أعيد عليه ما حدث مرة أخرى ثم طلب ذلك للمرة الثالثة.

كان الرجل يستمع بتركيز شديد ونادرا ما تدخل بسؤال استفسارى.

وكان كلما طلب أن أروى له القصة أرويها بحماس وإن خمنت أنه يبحث عن ثغرة أو تناقض أو تعارض فيما أرويه يمكنه منها أن يحطم روايتى ويكتشف كذبى لو كنت كاذبا، بعدها توجه للجلوس إلى مكتبه وأشار إلى أن أجلس ثم أمسك بالأوراق التى كتبت عليها حوارى مع الملك وسألنى عما قاله كل من الأمير عبدالله الفيصل والمستشار كمال أدهم فذكرت له ما قالاه بالتفصيل وردى عليهما ثم سألنى ولماذا رويت للملك ما قالاه، ولماذا سألته عن ذلك؟ فقلت للرئيس لقد أردت ببساطة أن يعرف الملك أننى التقيت بشخصيتين هامتين فى المملكة وأن لهما موقفا سلبيا وسيئا تجاه النظام والرئيس المصرى وأنهما لم

يتورعا عن إعلان ذلك أمامى كصحفى مصرى، كما أردت أن أسمع رده على ذلك فسألنى عما إذا كنت قد شعرت بالخوف فى أى لحظة خاصة وأننى وحدى هناك، فأجبت بأننى كنــت أؤدى عملى بكل ما يفرضه علىّ من مســئوليات والتزامــات، ولم أفكر فى الخوف إطلاقا ولو كنت قد خفت لما رددت عليهما فورا ولما نقلت ما قالاه للملك.

ثــم ســألنى عما إذا كنت وصلت إلى مكتب الملــك دون أن يعترضنى أحد فعلا أو حتى يسألنى من أنا؟ أو إلى أين أنا ذاهب؟ فأكدت له أن أحدا لم يستوقفنى ولم يسألنى وتذكرت أنــه حتــى مدير مكتب الملك لم يطلب أن يرى أى وثيقة تثبت من أنا أو أين أعمل؟ وكان واضحا أن الرجل يحاول أن يكتم دهشته من مثل هذا الأمر.

بعدها ســألنى عما إذا كنت قد ســجلت الحديث فأجبته بالإيجاب بسرعة من يبحث عــن النجاة من الغــرق، وواصلت قائلا كما أن معى الفواتير التــى تثبت أننى أقمت على حسابى طوال فترة الزيارة وسلمته شريط التسجيل والفواتير وبسرعة ألقى نظرة على الفواتير ثم أعادها لى ثم قال سنســمع معا الحوار ووضع الشــريط فى جهاز تســجيل كان موجودا بجواره، وبدأ يســتمع لنص الحوار بين الحين والحين كان يوقف الاســتماع ويسألنى عن رد فعل الملك وملامح وجهه فأجيب بأمانة وبقدر ما تسعفنى الذاكرة. ومرات أخرى أوقف شــريط التسجيل ليستفســر عن فقرة أو جملة ما، وكنت أسترسل فى الحديث حتى يدرك ويقتنع أننى لا أخفى شيئا، وبدا أن الرئيس قد عرف كل ما كان يريد أن يعرفه وأنه وجد إجابات لكل الشكوك التى دارت بخلده.

وخلال اســتماعه للفقرة التى أخبرت فيها الملك فيصل بأن ابنه وصهره ســيعملان على أن يركع عبدالناصر وأننى قلت لهما إنه لن يركع. ابتســم ابتسامة رضا، وكان واضحا أنه يقــدر جيدا الموقف الذى كنت فيه، ومع ذلك لم أتردد فى أن أعلن رأيى ولكنه لم يتوقف ليســألنى. لقد ســألنى من قبل وسمع منى إجابة، وربما لو سأل مرة أخرى لقلت له إننى كنت أدافع عن رئيس مصر وعن رمزها فى تلك اللحظة ولم أكن أدافع عن شخص الرئيس بل عن مكانه ومكانته.

ووصل عبدالناصر إلى ما يريد فابتسم فى النهاية وهو يشكرنى على شجاعتى وأمانتى، ثم بدأ يسألنى عن عملى وعن دراستى فأدركت أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى، ثم قال إن الحديث عمل صحفى ممتاز وخاصة لصحفى فى ســنواته الأولى واستطرد قائلا،

أننى تحدثت وحاورت الملك فيصل كصحفى «فاهم شغله»، وبالرغم من كل ما فعله الرئيس لبث الاطمئنان فى قلبى منذ اللحظة التى دخلت فيها مكتبه للمرة الأولى فى حياتى فإننى لم أشعر بالاطمئنان حقيقة إلا وهو يوجه لى الشكر، ومع ذلك كان هذا الاطمئنان مشوبا بالحذر.

ثم سألنى عما إذا كنت سأحزن كثيرا إذا لم ينشر هذا الحديث، فأجبته قائلا إن مصالح مصر أهم من أى حديث صحفى فقال أنه يرى عدم نشره ثم أخبرنى إنه سيحتفظ بالشريط وعندما وقف إيذانا بانتهاء اللقاء ومد يده ليصافحنى مودعا سألته وإلى أين سأذهب؟ فابتسم وعلى وجهه ملامح حيرة وسألنى ماذا أقصد؟ فقلت له إن بعض الزملاء فى الجريدة قد قالوا لى وأنا فى الطريق إلى سيادتك إنهم سيشترون لى خبزا وحلاوة، فضحك الرجل وقال هذه المرة ستعود إلى عملك ومنزلك وضحك من جديد.

ووجدت الفرصة سانحة لأخبره أن سكرتيره قد أوقع الرعب فى قلبى ربما بصورة أكثر من زملائى بالعمل قبل أن أنال شرف اللقاء فاستوضح الأمر فرويت له ما قاله سكرتيره فاتصل به طالبا حضوره وسأله بغضب واضح عما إذا كان قد قال ذلك؟ فصمت الرجل فوبخه توبيخا شديدا ووجه له اللوم وقال له أن الأستاذ عبده أدى عمله بوطنية وبكفاءة وشجاعة ولو أن الكل فعلوا مثله لتغيرت الصورة كثيرا، ثم أمر بأن أعود إلى جريدة الأخبار فى سيارة من سيارات الرئاسة، وأدركت فى هذه اللحظة أننى كسبت عدوا قويا بمكتب الرئيس وأن الرجل لن ينسى ولن يغفر ذلك أبدا.

وبعد أن خرجت إلى شارع الخليفة المأمون، سألنى السائق إلى أين؟ وبسرعة طلبت منه التوجه إلى فندق شبرد فلم أكن أريد العودة إلى الجريدة قبل أن أرتب أفكارى. ولقد كنت أتردد على صالة فندق شبرد القديمة لاحتساء الشاى وسماع عزف البيانو والكتابة أو القراءة ولم يكن الأمر يكلف سوى أقل من ٢٥ قرشا وقتذاك وبهذا القرار تجنبت أسئلة السائلين واستفساراتهم.

ورأيت بعد إعادة النظر فى الأمر أنه ليس من حقى أن أبوح لأحد بما قاله الرئيس لى لأنه أمر يخصه وليس من حقى إفشاؤه، ولكن كان من الضرورى الاتصال بمصطفى أمين لإبلاغه بأن الرئيس قرر عدم نشر الحديث وأننى سلمته شريط التسجيل، وطوال الأيام التالية تعمدت البقاء بعيدا عن دار أخبار اليوم وعن منزلى تجنبا لأى أسئلة من أى كان. واغتنمت الفرصة

لتكثيف نشاطى بالقوات المسلحة وزيارة أكبر عدد ممكن من القادة خاصة خارج القاهرة.

وخلال الأيام التالية للقاء الرئيس عبدالناصر تذكرت علاقتى التى توثقت خلال النصف الأول من الستينيات بالمشير عبدالحكيم عامر وإن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تغيب عن عبدالناصر وستثير أمامه الكثير من علامات الاستفهام وقلت ربما أسهمت هذه العلاقة فى مضاعفة شكوك عبدالناصر فى الحديث الذى أجريته مع الملك فيصل خاصة إذا اقتنع أننى من معسكر المشير عامر، وكان الرجلان قد اختلفا بعد الانفصال السورى عام ١٩٦١م وتحول الاختلاف إلى صدام عندما قرر الرئيس عبدالناصر تشكيل مجلس للرئاسة عام ١٩٦٢م يضم بجانب المشير عددا من أعضاء المجموعة اليوليوية والسياسيين المدنيين وبما كان يعنى أن المشير لم يعد نائبا أول لرئيس الجمهورية ولجأ المشير إلى الاختفاء فى مرسى مطروح وقرر قادة الأفرع الرئيسية من كبار القادة التوجه إلى مرسى مطروح والبقاء بجوار المشير.

وكان يسيرا أن يفهم عبدالناصر أن ما جرى هو انقلاب عسكرى سلمى عليه وأن القوات المسلحة قد انحازت إلى المشير فى الصراع الدائر بينهما، فقرر التراجع عن موقفه وألغى مجلس الرئاسة وعمل على استرضاء المشير وتقاسم معه النفوذ والسلطة وتساوى كلاهما فى المخصصات المالية التى يحصلان عليها وبما يؤكد للجميع أنهما فى مستوى قيادى واحد.

وبما أن الرئيس كان يحاط علما بعلاقات المشير عامر ويعرف كل من يتردد عليه وبما أنه طلب معلومات عنى قبل أن يستقبلنى فقد رأيت أن ذلك ربما ضاعف من شكوكه قبل أن يرانى ويسمع منى وربما كانت محاولته للعثور على ثغرة فى روايتى انعكاسا لهذه الشكوك وربما لم يكن الأمر كذلك ولكننى فكرت فيها كمجرد احتمال.

المهم أن المحصلة النهائية أن الرئيس تأكد من حسن نيتى وإلا ما شكرنى بهذه الحرارة وكان الأمر فرصة سنحت لكى يعرفنى الرئيس شخصيا، هذه المعرفة وبالصورة التى تمت بها تركت بصماتها على كل ما جرى بعد ذلك من احتكاك مباشر أو غير مباشر بيننا.

❑❑❑

الفصل الثالث

مدنى فى وحدات الكوماندوز.. خلف خطوط العدو

بعد تجربة اللقاء الأول بالرئيس جمال عبدالناصر. قضيت وقتا طويلا أراجع وأتأمل ما جــرى، وكثيرا ما عدت للمثل المصرى الجميــل الذى سمعته من والدى ومن أمى رحمهما الله عشــرات بل مئات المرات ألا وهو.. «امشــى عدل يحتار عدوك فيك» ولا أقصد هنا أن عبدالناصر هو العدو أبدا، بل كان الرئيس الذى يبحث عن خطأ ما فى الحوار الذى أجريته مع الملك فيصل، وما سبق وواكب وأعقب هذا الحوار من أحداث وملابسات.

انتهى اللقاء بصورة إيجابية للغاية بالنسبة لى حتى ولو كنت قد حزنت على عدم نشر الحوار، وما كان يمكن أن يضيفه لى فى مشــوارى المهنى، ولكن الخروج بسلام كان أفضل آلاف المرات من نشره.

وكانــت هنــاك ضغــوط ومحاولات كثــيرة من رؤســائى وزملائى لمعرفة مــا جرى مع عبدالناصر، وكنت أردد على مسامع الجميع مدى حزنى لأنه رفض النشر، وكفى. وكنت أعلن فى بعض الأحيان، قائلا، لابد أن لديه أسبابا قوية لعدم نشر هذا الحديث. ولم يكن وهو الرئيس ليبوح بهذه الأسباب لصحفى فى بداية الطريق.

أما مصطفى أمين فلم يسألنى قط، ولابد أنه لاحظ أننى تغيبت عن الجريدة لعدة أيام. وأن التليفون كان وسيلتى لإملاء ما لدى من أخبار أو موضوعات.

مــرت التجربة. وكنت علــى اقتناع أنها غير قابلة للتكرار. وأننى لن ألتقى بعبدالناصر مرة أخرى.

ودارت الأيام. وانشغلت بعملى ودراستى وقراءاتى وبالسفر إلى اليمن بين الحين والحين. ولم أكن أتوقع أن مشــروع السفر للدراسة ســيطرق بابى فى العام نفسه عام ١٩٦٦م، وأنه سيفتح الباب لتجربتين متتاليتين للاقتراب من عالم رئيس الجمهورية.

وكنت قد طرحت فكرة السفر للدراسة على الأستاذ جلال الحمامصى، وخلال مناقشتها، أوضحت له أننى درست القانون الذى أحببته، واخترت الصحافة المهنة التى لم أرض بها بديلا، ولهذا فإننى أتطلع للسفر لدراسة الصحافة دراسة أكاديمية ومتعمقة.

وقبل أن ينتصف العام أبلغنى أنه رشحنى للسفر للدراسة ببرلين عاصمة ألمانيا الشرقية، وعلق قائلا، إنها دولة شيوعية، فأجبته قائلا إن العلم هو العلم أيا كانت القبعة التى يضعها الأستاذ على رأسه.

وخطوة إثر خطوة. انتهت الإجراءات. وسافرت إلى برلين. وانتظمت فى الدراسة مع مجموعة من الدارسين تضم أعدادا من الصحفيين العرب.

وننغمس فى الدراسة وفى تجربة الحياة بأوربا بكل أبعادها، وننشط داخل اتحادات الطلبة، ويقع علينا الاختيار لنتحمل المسئولية.

ولأن هناك نقصا فى عدد كبير من السلع فى ألمانيا الشرقية، كنا نرسل واحدا منا كل أسبوع إلى برلين الغربية ليعود ومعه احتياجاتنا من هذه السلع.

وصباح الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧م، توجهت إلى برلين الغربية لشراء احتياجات المجموعة، وكنت أفضل دائما التسوق من أكبر مركز تجارى فى برلين الغربية، وربما هو الأكبر فى القارة. حيث يمكننى العثور على كل ما أريد خلال فترة زمنية قصيرة، بعدها أصعد إلى الكافتيريا والمطعم. وأتناول إفطارى وأنا أقرأ الصحف، وأشاهد معالم برلين الجميلة من هذه النقطة المرتفعة.

وعندما وصلت إلى باب هذا المركز التجارى، وجدت لافتة موضوعة على المدخل تقول «ادفع ماركا تقتل عربيا» وأفقت من الصدمة التى لم أتوقعها ومن مشاعر الغضب. وبدأت أبحث عن السبب فى مثل هذه الحملة، فقد استنتجت أن الإعلان أو اللافتة جزء من حملة تبرعات عامة وراءها ما وراءها، ولابد أن قوى يهودية هى التى أطلقتها.

وأدركت أننى بملامح وجهى العربية يمكن أن ألفت الأنظار لو خاطرت وسألت، وكان على أن أبحث عن موظفة صغيرة السن بلا خبرة كبيرة بالسياسة. وفعلا عثرت على ضالتى، وأخبرتنى عندما سألتها عن اللافتة. إن العرب بدأوا الحرب ضد إسرائيل، وأنهم يستهدفون إبادة الإسرائيليين وتدمير الدولة.

إذن لقد بدأت المعركة، ووفقا لتصريحات كبار القادة ورأس الدولة، فإن النصر فى متناول اليد.. هكذا تصورت ثقة منى فى كل ما قاله المسئولون أصحاب القرار وقتذاك. وعدت بسرعة. وأبلغت الجميع باندلاع الحرب.

ومنذ رأيت هذه اللافتة وأنا أتساءل، ولماذا لا أنظم حملة مماثلة؟ ولماذا لا يكون الشعار «ادفع ماركا تنقذ عربيا»؟.

واتصلت بالمسئولين الألمان فى برلين الشرقية، ولم أحصل على إجابة واضحة. فأخبرت مــن التقيت بهم بالحملة التى انطلقت فى برلين الغربية وبالقطع فى مدن أخرى. وبما أن الدولة تناصر العرب والقضية الفلسطينية وعلى علاقة طيبة بالنظام المصرى وبالرئيس جمال عبدالناصر. فإننى أتوقع الموافقة على انطلاق حملتنا فى ألمانيا الشــرقية. وأرجو أن يتحقق ذلك قبل أن يتوقف إطلاق النيران. وقالوا ســنعقد اجتماعا. وســنتصل بك ووافقوا. وقدموا المســاعدة المطلوبة. ونظمــوا برنامجا لزيارة المصانع والشــركات واجتماعات بمقار الحزب الشيوعى.

وتم تقســيم العمل فيما بين المسئولين باتحاد الطلبة. وبمباركة السلطة بدأت التبرعات تتدفق. وكان الســفر والمؤتمــرات والحوارات واللقاءات اليومية تســتمر طويلا. ولم نتوقف ولم يمنعنــا الإجهــاد من الاســتمرار وبعد أيــام. طلبت منهم أى من الجانــب الألمانى مد نطاق الحملة ليشــمل برلين الغربية. فاستغربوا الطلب. وأنكروا وجود أى علاقة مع برلين الغربية. وتركتهم يترافعون فى هذه القضية. وبعد أن انتهوا أوضحت لهم أن كل ما أريده هــو موعدا للقاء الطالب الألمانى «رودى دوتشــكه» الذى يلعب دورا نشــيطا فى الأوســاط السياسية والطلابية فى برلين الغربية. وأكدت لهم إننى أعلم أن هناك اتصالات بينهم تتم بشكل دورى.

ومرة أخرى قالوا. إنهم سيعقدون اجتماعا وسأسمع منهم فور انتهاء الاجتماع والتوصل لقرار.

وتحدد الموعد المطلوب، وقدم «رودى دوتشــكه» لى يد المســاعدة لجمع تبرعات لمصلحة مصر فى برلين الغربية. ولم يكتف الرجل بإجراء الاتصالات بالشــركات والمؤسســات، بل رافقنى خلال الكثير منها. وكان لدوره وحضوره تأثير كبير على حصيلة حملة التبرعات.

وخــلال هــذه الفترة. كنت أتابــع العمل من أجل العودة إلى مصــر، بعد أن تبينت أن الهزيمــة قد حاقت بالجيش المصرى. بالإضافة إلى الجيشــين الأردنى والســورى، كانت الصورة مفجعة ببشاعتها ومريرة.

واقترح المســئولون الألمــان، بعد أن وصلت حصيلة التبرعات شــرقا وغربا إلى أكثر من

مليونى مارك غربى، أن يستبدلوا المبلغ النقدى بحمولة من الأدوات والمعدات والأجهزة والمستلزمات الطبية والأدوية. وقالوا إنهم سيوفرون لنا طائرة تنقلنا إلى العاصمة السودانية الخرطوم. ومنها ربما إلى أسوان لو كانت الظروف تسمح بذلك. والباقى تتولاه السلطات المصرية.

وفوجئت خلال كل ذلك بالسفير المصرى الذى يتحمل مسئولية القنصل العام فى ألمانيا الشرقية لأن مصر لم تكن قد اعترفت بعد بهذه الدولة وبالتالى لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بينهما، يطلب منى تسليمه كل التبرعات التى تم جمعها. فسألته: وهل شاركت بأى جهد فى حملة جمع التبرعات؟ لقد تقاعست، ولم تحرك ساكنا. والآن وبعد أن نجحنا، تريد أن تسرق نجاحنا، وتسجل نقطة ثمينة لحسابك فى القاهرة. فرد قائلا: إنك مجرد طالب بعثة. ولذا فإنه مسئول عنى. وهو الطرف الذى يحق له تسليم هذا المبلغ للمسئولين بالقاهرة، فأجبته بأنه غلطان جدا، فأنا صحفى ولست طالبا، ثم إننى سأقطع الدراسة وأعود إلى القاهرة. فقال إن التعليمات التى لديه تقضى باستمرار الجميع فى الدراسة. فأكدت له إننى سأعود إلى القاهرة. وسأحمل معى كل ما جمعناه. فاتهمنى بأننى أريد أن أحتفظ بالمبلغ لنفسى. فقلت له: إنك تجاوزت، وستدفع ثمن هذا التجاوز وستعتذر لى علنا وأمام كل من يعملون تحت رئاستك، والذين شهدوا هذا الحديث. وتركته لأتوجه إلى برلين الغربية لأتحدث مع سكرتير الرئيس عبدالناصر تليفونيا، وبعد محاولات تمكنت من الاتصال به. وأبلغته بالاقتراح الألمانى وبالحمولة الطبية وبالحصيلة التى تم جمعها خلال حملة التبرعات التى نظمناها. وأبدى دهشته من هذا النجاح. وسأل. ولماذا لم يفعل آخرون مثلما فعلت؟

وسمع منى تفاصيل رحلة العودة عبر الخرطوم. ثم نقلت إليه ما جرى مع السفير القنصل العام. فأبدى استياءه. وقال إنه سيتصل بى عن طريق القنصلية لإبلاغى بالقرار فيما يتعلق برحلة العودة. وأن ذلك ربما يكون اليوم أو غدا وعلى أن أتابع ذلك. وأن أنسق مع المسئولين الألمان ثم قال، أما السفير فاترك أمره لى وسأتولاه بعد إبلاغ سيادة الرئيس.

وعندما عدت وجدت السفير يبحث عنى، وتوجهت إلى مبنى القنصلية، وهناك سمعت اعتذارا منه أمام الجميع وأبلغنى أن مكتب سيادة الرئيس قد اتصل، وأن العودة ستكون بالطائرة الألمانية إلى قبرص ومنها ستعود بطائرة مصر للطيران التى ستطير من الإسكندرية

إلى العاصمة القبرصية فى رحلة خاصة لنقل الحمولة الطبية. ثم تحلق للهبوط بمطار النزهة بالإسكندرية.

وتمت الترتيبات مع الألمان. وعدنا إلى الإسكندرية وفقا للخطة الموضوعة. وتسلم المسئولون الشحنة. وكان فى انتظارى سيارة عادت بى إلى منزلى مساء يوم ١٥ يونيو ١٩٦٧م، وقبل منتصف الليل تلقيت مكالمة تليفونية من مكتب رئيس الجمهورية يبلغنى شكره على كل مافعلته.

وكان الاحتكاك الثانى بالرئيس. أو التجربة الثانية للاقتراب من عالمه بشكل غير مباشر.

وبالنسبة لى لم يكن الأمر مخططا على الإطلاق. ولكنها مجرد حلقات. كل منها تقود إلى الأخرى دون أن تبوح بشىء. إلى أن تصل إلى النتيجة. والتى تعد بصورة أو بأخرى حلقة من حلقات حياتنا. ستفضى إلى أخرى. وهكذا.

وفى تلك اللحظات لم أكن أعرف أو حتى أخمن أن هناك اقترابا آخر من عالم الرئيس عبدالناصر.

لقد عدت إلى مصر. وأصبح اهتمامى الرئيسى أن أعرف ماذا حدث؟ وكيف؟

والمعلومات إما عند البشر أو فى وثائق. وكنت مهتما بالاثنين.

ولم يكن هناك وقت للراحة، وكان من الضرورى أن أزور الجبهة ابتداء من الإسماعيلية وصولا إلى بورسعيد، وأن ألتقى بالقادة الموجودين وأسمع منهم مباشرة. وذلك قبل أن ألتقى بالقادة الكبار أينما كانوا. سواء فى الخدمة أو فى التقاعد بمنازلهم.

والتقيت بالعشرات طوال فترة زيارتى للجبهة، وانطلقت الألسنة تتحدث بصراحة. كان الغضب والسخط والألم والإحساس بالمرارة يسيطر على الجميع. وطالت الاتهامات معظم أهل الحكم والقيادة.

وجاء الدور على القادة، ولم يختلف الأمر كثيرا. وكان المحالون إلى التقاعد الأكثر مرارة خاصة بعد أن تبينوا أن الفريق أول محمد فوزى قد غدر بهم وأن كثيرين يمكن أن يتحولوا إلى كبش فداء.

ومن بين كل هؤلاء سأتوقف أمام المقدم إبراهيم الرفاعى. لأن الاتصال به هو الذى فتح الباب للاقتراب من عالم عبدالناصر مرة أخرى.

هــذا المقاتــل العبقرى. التقيت به عقب نجاحه المبهر فى عملية الهجوم على معســكر الدبابــات لقــوات الاحتلال الإنجليزى فى مدينة بورســعيد أثناء عــدوان ١٩٥٦م، حكى الرجل ببســاطة وتواضع تفاصيل هذه العملية الفدائية. وبعد أن انتهى فوجئ وأنا أقول له «ضع فى اعتبارك منذ الآن أننى أقدم منك فى العمل الفدائى، وعليك احترام هذه الأقدمية» وســألنى باستغراب ودهشــة كيف؟ فحكيت له تجربتى كفدائى قاتل ضد قوات الاحتلال الإنجليــزى عام ١٩٥١م. ومنذ تلك اللحظة لم تعد العلاقة بيننا علاقة بين ضابط وصحفى بل صداقة متينة. والتقيت به فى اليمن مع قادة قوات الصاعقة هناك والصاعقة البحرية.. وعندما نظمت قيادة قوات الصاعقة طابور سير من مدينة إنشاص إلى بورسعيد فى ديسمبر عــام ١٩٦٤م، كان قــرارى الســير معهم خطوة بخطــوة، فالزملاء ســيعتمدون على اللقاء بالقادة، وأعنى قادة الصاعقة وقادة الكتائب المشاركة فى نهاية كل مرحلة. وبالتالى فليس هنــاك فرصــة للتميز. لذا قررت أن أكون مع الصاعقة طوال المشــوار، أقترب من الجميع، وأسمــع. منهم ولم يصدق الكثيرون أننى ســأصمد، إلا أن إبراهيــم الرفاعى قال لهم إننى سأتمكن من قطع المسافة سيرا على الأقدام.

وبدأ الرهان فيما بينهم حول الأمر.

واكتشــف قادة الكتائب المشــاركة، أن وجودى مع أى كتيبة يجعل نتائجها أفضل، فالضباط والصف والجنود يتابعون مدنيا يسير معهم، وكلهم يحاول أن يكون الأفضل، لذا بدأ قادة الكتائب المشاركة فى مطالبتى بالسير معهم. وقررت أن أقضى يوما مع كل كتيبة. ودخلت بورسعيد مع الكتيبة رقم ١٣ التى يقودها الرفاعى.

وتكرر الأمر فى طابور السير من القاهرة إلى الإسكندرية فى فبراير عام ١٩٦٦م. وكسبت صداقــة الآلاف من الرجال. ومن خلال الثقة التــى أولاها لى بعض القادة والضباط، بدأت أسمع تفاصيل المحاولات الانقلابية التى شارك فيها بعض منهم.

وتعددت اللقاءات والحوارات والحكايات إلى أن ســافرت للدراســة فى ألمانيا الشرقية. وكان منطقيا أن أتصل بالرفاعى بعد العودة، ويسألنى عما إذا كنت قد علمت أنه فى طريقه لتشكيل مجموعة فدائية للعمل خلف خطوط العدو!

ونلتقى ويشرح لى العقبات التى يضعها سعد الدين الشاذلى قائد القوات الخاصة أمامه. ويطلب منه مدير المخابرات تنفيذ عمليتين داخل سيناء. الأولى تفجير تشوينات الذخيرة

التى تركتها القوات المصرية أثناء انسحابها. والثانية نسف قطار كان من المقرر أن ينقل الصواريخ المصرية أرض ـ أرض من طراز القاهر والظافر لاستعراضها فى شوارع العاصمة الإسرائيلية فى يوم الاحتفال باستقلال إسرائيل.

كانت العملية الأولى تستهدف حرمان إسرائيل من استخدام كل هذه الذخيرة لتشغيل كل الأسلحة المصرية من دبابات ومدفعية وغيرها والتى تركتها القوات المنسحبة دون تخريبها، وبما يضاعف من حجم السلاح فى يد القوات الإسرائيلية. أما العملية الثانية، فكانت حفاظا على الكبرياء والكرامة المصرية التى ستتعرض للأذى من جراء استعراض هذه الصواريخ.

وينفذ الرجل ما طلبه منه مدير المخابرات الحربية. ولا يتوقف الرفاعى عن العمل من أجل إنشاء هذه المجموعة الفدائية.

وأستعيد تلك الفترة الذهبية التى امتدت من أكتوبر ١٩٥١م حتى يناير ١٩٥٢م التى شهدت ميلادى كفدائى يشارك فى العمليات ضد قوات الاحتلال الإنجليزى بمنطقة القناة، ولا شك أن هذه الفترة قد أضافت لى الكثير من الخبرات والمعلومات. وباختصار كانت تجربة فى غاية السخاء والصعوبة. وربما بسبب صغر السن وقلة التجارب، لم أتمكن من تقدير حجم الأخطار التى تحيط بمثل هذا العمل، ولكن كانت القضية الوطنية هى الدافع القوى وراء هذه المشاركة.

هذا الفتى الوطنى الذى حاول بذل الجهد لإنهاء الاحتلال الإنجليزى، استيقظ قويا وعفيا وهو يتابع ما يقوله إبراهيم الرفاعى حول العمل الفدائى ضد قوات الاحتلال الإسرائيلى. وعرضت عليه الانضمام لهذه المجموعة، فيقبل بل ويرحب.

وأناقش الأمر مع مدير المخابرات. وبعد أن يسأل ويدقق ويستفسر، يطلب مهلة للتفكير فى الأمر.. وفى النهاية أتقدم بطلب التطوع فى صفوف مجموعة الكوماندوز التى يقودها الرفاعى بالصفة المدنية. ويوافق الرفاعى على طلبى، ويكتب تزكية يؤكد فيها أننى سبق أن حصلت على دورة تدريبية بوحدات الصاعقة وبمدرسة القفز بالمظلات. وأن لياقتى البدنية عالية، وروحى المعنوية قوية. كما أننى شاركت فى طابور السير الأول بالصاعقة من إنشاص إلى بورسعيد والثانى من القاهرة إلى الإسكندرية.

وأحمل أوراقى إلى اللواء صادق. وقبل أن يوافق، يقترح عليه نائبه اللواء محرز

عبدالرحمن أن أوقع إقرارا بأن القوات المسلحة غير مسئولة عنى فى حالات الأسر أو الفقد أو الإصابة أو الاستشهاد، ولأقطع الطريق أمام مناورة اللواء محرز، أكتب الإقرار وأوقعه. ويقرر مدير المخابرات الاحتفاظ به فى مكتبه. ويوافق على طلب التطوع. ومن بعده يوافق الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وأصعد إلى الدور الثانى بمبنى وزارة الحربية للحصول على موافقة الوزير الفريق أول محمد فوزى، والتى تصورت أنها مضمونة، إلا أنه يرفض الطلب. ويسألنى: هل تريد أن تعرف المزيد من أسرار القوات المسلحة؟ ويواصل قائلا. إننى أرفض مثل هذا الطلب؛ حتى لا أفتح أمامك مزيدا من الأبواب للاطلاع على أسرار عسكرية. فأوضح له أن مدير المخابرات الحربية، الرجل المسئول عن أمن وأسرار القوات المسلحة، قد وافق وأن رئيس الأركان فعل الشىء نفسه. وأعتقد أن قضية الأمن والأسرار لم تغب عنهما. فيقول بحسم: إننى القائد العام، وأرفض طلب تطوعك. فاستأذنه فى عرض الأمر على الرئيس عبدالناصر باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة وأوضح له، أننى بعد أن قطعت هذا المشوار لن أستسلم أمام رفضه، وفى البداية والنهاية فأنا لا أطلب ميزة ولا أسعى وراء مطمع، بل أسعى للمشاركة فى العمليات خلف خطوط العدو من أجل بلدى، لا من أجل شىء آخر. ويسألنى، وهل تتوقع أن الرئيس سيأخذ بوجهة نظرك ويتجاهل موقف وزير الحربية؟ وأجيبه قائلا، إننى أسعى، إنه مجرد سعى لا أكثر ولا أقل.

وأخرج من مكتبه. وأتوجه إلى مكتب مدير المخابرات الحربية، وأنا فى حالة من الغم والحزن العميق لموقف الوزير. فيخبرنى بعد أن قصصت عليه ما جرى، إنه هو الذى سيعرض الأمر على الرئيس عبدالناصر.

ويستغرب الرئيس موقف الفريق أول فوزى. ويوضح للواء صادق: إن اشتراك مدنى فى عمليات خلف خطوط العدو، سيكون أحد العوامل المؤثرة فى شحذ همة الرجال بالجبهة ورفع معنوياتهم. وسيسأل كل رجل نفسه: إذا كان هناك مدنى يفعل ذلك، فإنه يمكنهم أيضا تنفيذ عمليات خلف خطوط العدو. ثم قال بوضوح: إن دور عبده مباشر كمتطوع مدنى بالكوماندوز لن يختلف عن دور الشئون المعنوية.

ويحسم عبدالناصر الأمر. ويقرر قبول تطوعى بالصفة المدنية بوحدة الكوماندوز التى حملت فيما بعد اسم المجموعة ٣٩ قتال.. وبعد عودته من لقاء رئيس الجمهورية، يقول لى: إن مثل

هذا الاستثناء ليس له سابقة فى التاريخ المعاصر للقوات المسلحة. فلأول مرة يوافق رئيس الجمهورية على اشتراك مدنى فى العمل الفدائى العسكرى. وأكد أن الرئيس بالضرورة سيتابع، وسيحرص على أن يعرف، هل كان على صواب فى تقديره للموقف أم لا؟

ويطلب منى ومن أجهزة أخرى معرفة رد فعل اشتراكك فى عمليات داخل سيناء بين القوات الموجودة بالجبهة.

ونصحنى بأن أضع فى اعتبارى دائما أن كل ما سأقوم به داخل هذه المجموعة مرصود. فليس من المألوف وجود مدنى وصحفى بين المقاتلين وما يتداولونه من معلومات وأسرار، وباستثناء غير مسبوق من رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وأمر الرفاعى بإعادة تأهيلى لما أنا مقبل عليه. وعندما حان الوقت للاشتراك فى العمليات، طلب منى الرفاعى خلال العملية الأولى أن أبقى بجواره طول الوقت. وقد نفذت الأمر حرفيا.

❑❑❑

الفصل الرابع

محاولة انقلابية من داخل المجموعة ٣٩ قتال

بـدأت أشـارك فى العمليات خلف خطوط العدو فى سـيناء. وبـدأت أعلم أن الرئيس عبدالناصر بعد أن يعلم بعودة الدورية من سـيناء، وإنجاز مهمتها القتالية، يتصل تليفونيا بالأسـتاذ هيـكل ليخبره أن «عبده وصل بسـلامة الله» وإذا كان رئيـس تحرير الأهرام قد ذهب إلى منزله واسـتغرق فى النوم يترك الرسـالة مع سـكرتيرته أو مديرة مكتبه القديرة نوال المحلاوى.. وعندما غابت نوال عن العمل فترة بسـبب وجودها فى المعتقل على ذمة التحقيق فى قضية أمن قومى. كان يترك الرسـالة مع الأسـتاذ محمود عطاالله الذى حل محلها فى العمل بمكتب الأستاذ هيكل وعندما التقينا فى العاصمة البريطانية أنا والصديق حسـنى إمام مدير مكتب وكالة أنباء الشـرق الأوسـط فى لندن ومدير مكتب وكالة الأنباء الكويتيـة فيما بعد مع الصديق محمود عطاالله الذى اختار الانضمام لأسـرة تحرير جريدة الشـرق الأوسـط فى لندن، روى لنا محمـود تفاصيل هذه الوقائـع. وكان مازال فى حالة دهشـة من مثل هذا الاتصال التليفونى الذى تحول إلى تقليد فى أعقاب كل عملية فدائية، وقـال معقبا، إن عبدالناصر كان يتصل للإبلاغ عن عودة «عبده» بالسـلامة، ولم يقل أبدا إن المجموعة الفدائية قد عادت بالسـلامة، ولم يحاول أن يحكى لهيكل شيئا عن العملية التى تم تنفيذها.

وإذا مـا اتصل عبدالناصـر ورد على المكالمة محمود عطاالله وعـرف منه عبدالناصر أن هيكل نائم، كان يصر على عدم إيقاظه. ويرجو إبلاغه بالمكالمة وموضوعها.

وفـى كثـير من الأحيان كنا نعود من سـيناء فجرا أو بعد الفجـر أو قبله بقليل. وكان الرفاعى عندما يجرى اتصاله التليفونى بمدير المخابرات يجده مسـتيقظا وكان اللواء محمد صـادق يعرف أن الرئيـس لن ينام قبل أن يطمئن على عودة الدورية، ويسـمع ملخصا لما قامت به، وما تحقق من نجاح.

وطوال هذه المرحلة، كان الرفاعى يتوجه من رحلة العودة أيا كانت منطقة تنفيذ المهمة

إلى مكتب مدير المخابرات ويقدم له تقريرا شفهيا. وفى معظم الأحوال كان يطلب من الرائد طبيب عالى نصر وهو التالى له فى القيادة ومنى الذهاب معه وفى بعض العمليات الخاصة تلك التى لها طابع خاص كان يتلقى أمرا من اللواء صادق بالتوجه إلى مكتب وزير الحربية ليسمع منه، وفى أحيان أخرى كان يقول، إن الرئيس عبدالناصر فى انتظاركم.

وخلال اللقاء مع وزير الحربية، كنت اعتذر عن حضور اللقاء، أما بالنسبة للرئيس عبدالناصر، فقد كنت أحرص دائما على الحضور. وفى المرة الأولى، سألت اللواء صادق ومن بعده إبراهيم الرفاعى عما إذا كان من اللائق أن أشهد مثل هذه المقابلة وكان رد مدير المخابرات ملفتا وجديدا ومرشدا. حيث قال، إن القيادات العسكرية لها أسلوب فى العرض لا تخرج عنه، أما أنت ولأنك لست عسكريا محترفا، فلك أسلوب فى الرؤية والتقييم مختلف. وأتوقع أن يطلب الرئيس سماع وجهة نظرك، وعليك ترتيب أفكارك. ثم عقب قائلا. إننى سأخبر الرئيس عبدالناصر أنك بصحبة الرفاعى أولا لأعرف هل يريدك مع قائد المجموعة أم لا وثانيا حتى لايفاجأ بوجودك.

وعندما خرجنا سألت إبراهيم، عما إذا كان يريدنى معه، فقال إنه يصر على ذلك، ولفت نظرى ترحيب عبد الناصر بإبراهيم الرفاعى ترحيبا يقترب من التدليل.. وبعد أن أنصت. سأل.. وانتهى اللقاء فأدينا التحية واتجهنا إلى باب الخروج إلا أنه طلب منى البقاء.

وبعد أن أصبحنا وحدنا سألنى عن تجربة القتال بالنسبة لى فأكدت له أنها أفضل ماقمت وأقوم به فى حياتى، وأن لهفتى على الاشتراك فى العمليات لا تعادلها لهفة بعدها استوضح بعض النقاط.

وفى المرة التالية طلب أن أحكى له حكاية المهمة بالكامل. فرويت له كل المعلومات والتفاصيل التى أعرفها. وفى النهاية تحفظت بقولى. ربما كانت هناك تفاصيل أو معلومات أخرى ولكن هذا هو كل مالدى.

ولم يختلف الموقف فيما تلا ذلك من لقاءات. كان يريد أن يسمع منى. وكنت أخبره بكل ما أعرفه، وبكل ماجرى خلال العملية. وفى إحدى العمليات كانت الأمواج فى خليج السويس ترتفع إلى ماهو أكثر من مترين وكانت الرياح عاتية خاصة خلال رحلة العودة بعد تنفيذ مهمة ناجحة بمنطقة الطور بسيناء الجنوبية. وأدت هذه الظروف المناخية إلى انقلاب

قارب من قوارب المجموعة. وأمر القائد بألا نترك فردا أو قطعة سلاح فى الماء وبدأنا فى عملية إنقاذ للقارب والأفراد والمعدات والأسلحة فى ظل هذه الظروف المناخية الصعبة. وكنا جميعا فى سباق مع الزمن. أى نريد أن تتم عمليات الإنقاذ وأن نتمكن من العودة قبل أن تبدأ رحلات الاستطلاع الجوى المعادية والتى تبدأ عادة بعد أول ضوء.

ونجحنا جميعا. وتمكنا من العودة مع ساعات الصباح الأولى.

واستمع عبدالناصر بإعجاب بقرار القائد، وبقدرة المجموعة على إنجاز عملية الإنقاذ بنجاح رغم كل الصعوبات.

ومنذ البداية تحدثت مع إبراهيم الرفاعى موضحا أننى لا أستطيع أن أروى شيئا عما يجرى خلال الوقت الذى أمكثه مع الرئيس، لأن ذلك حقه وحده. وأكدت له أننى سأتعرض لأذى كبير إذا ما خاطرت بفقدان ثقة الرجل وتفهم القائد الموقف وقال إننى أيضا لا أحب أن تخذل ثقتى فيك. فكيف أرضى أن تخذل ثقة الرئيس فيك؟

وفى شتاء عام ١٩٦٩م ألقت سلطات الأمن القبض على مجموعة من العسكريين بتهمة الإعداد لانقلاب عسكرى وكان من بينهم رائد صاعقة من المجموعة ٣٩ قتال وبدأ الجميع فى مراجعة علاقاتهم بزميلهم المقبوض عليه والتحسب لعملية استدعائهم للتحقيق معهم.

وكانت هناك علاقات أسرية واجتماعية تربط بين أفراد المجموعة ولم تكن علاقات الزمالة والصداقة محصورة فى العلاقات فيما بينهم. بل هناك من توسع ومد النطاق ليشمل أسرته.

وكان الرائد حنفى مَن النوع الهادئ الدمث الخلق الذى لايثير أية مشاكل مع زملائه أو رؤسائه.

وكان الاستغراب والدهشة هو رد الفعل المباشر للمعلومات التى تناثرت حول المجموعة الانقلابية والأوراق التى تم العثور عليها والصور والتسجيلات التليفونية.

ولم يكن هناك من صدق كل ماصدر عن المصادر الأمنية. وظل هناك أمل أن يكون هناك خطأ ما حول اشتراك الرائد حنفى فى هذه المحاولة.

ولاذ من لاذ بالصمت. وشعر من لم يرتبطوا بعلاقة مع المتهم بفرحة كتموها. فالمهم بالنسبة لهم إفلاتهم من عمليات التحقيق والمراقبة.

وكان البعض قد شعر بوجود متابعات أمنية، وبأن تليفوناتهم قد وضعت تحت الرقابة.

ومنهم من قال: ربما هى المتابعة الدورية بين الحين والحين. وقال آخرون بل هناك شىء ما.

وكانت العيون تتابع المجموعة بدقة وتحاول رصد أى خروج على المألوف ومثل هذا الإجراء الوقائى كان منطقيا ومفهوما. ويتعامل معه الجميع بفهم، ولم يكن يثير أية حساسية. فالقضية هنا لاترتبط بالثقة أو بالولاء، ولكن بالأمن وبالاحتمالات وبالمخاوف وقواعد عمل أجهزة الأمن.

وجاءت عملية إلقاء القبض على الرائد حنفى لتؤكد أن الإجراءات الوقائية كانت مفيدة.

أما أسبابها فترجع إلى أن هذه المجموعة القتالية كانت تضم العناصر الأكثر جرأة والأفضل تدريبا والأعلى كفاءة وكانت جسارة أفرادها وعلى رأسهم القائد مضرب المثل. كما كان فى مخازنها الكثير من الأسلحة والذخيرة طبعا فيما عدا الأسلحة الثقيلة كالمدفعية والمدرعات أى يتوفر لها الكثير من العناصر التى تشجع على الإقدام على عمليات اغتيال أو محاولات انقلابية.

وبلغ من براعة أجهزة الأمن أنها تركته يشارك فى عمليات المجموعة بشكل طبيعى ليشعر أنه بعيد عن الشبهات وعندما توفرت لها الأدلة الكافية، اختاروا أن يلقوا القبض عليه بعد عودته من عملية بمنطقة جنوب سيناء.

وأثناء اللقاء بالرئيس عبدالناصر. عقب العملية التالية. أى بعد مرور عدة أسابيع. جرى الحديث عاديا حول العملية الأخيرة. وأثناء التحية قبل الانصراف سألنى مباشرة عما إذا كان حنفى قد تحدث معى حول نواياه. فأجبته بسرعة: لو أنه فعل لأبلغت اللواء محمد صادق فورا فقال إنه يعرف أننى كنت سأفعل ذلك فعلا.

ومرة أخرى وبعد أن انتهى قائد المجموعة من عرض تقريره الشفهى على الرئيس وكان الوقت مبكرا طلب الرئيس منى البقاء وبعد أن خرج القائد ونائبه عاد الرئيس واستقر على مكتبه وأنا مازلت واقفا فى انتظار أن يأذن لى بالجلوس وبعد أن نظر فى بعض الأوراق. وأعطى تعليمات بتنفيذ ماهو مطلوب اتجه بنظره إلى وسألنى عن رؤيتى للملك فيصل، وفوجئت بالسؤال، وترددت لفترة حاولت فيها فهم السؤال، ولاحظ ترددى، بعدها قلت له: إنها كانت المرة الأولى التى أقابل فيها ملكا، وقد عاملنى برقة كصحفى، وعاتبنى بلا غضب لأننى رفضت الهدية التى قدمها لى وزير الإعلام، ولم يرفض الإجابة على أى سؤال.

وللافلات من حصار السؤال وأبعاده، انتقلت بالحديث إلى نقاط أخرى، وقصصت عليه

ثلاثــة مواقف واجهتنى خلال زيارة الســعودية واخترت أن يكون الموقف الأول عن وجود تيارات سياســية يسارية بالمملكة. وحكيت له إننى بعد أن التقيت بالأمير عبدالله الفيصل والشــيخ كمال أدهم، وقلت لهما ما قلته دفاعا عن مصر ورئيســها، وما أبديته من حرص على تحمل نفقات إقامتى وفى فندق خمس نجوم. فوجئت وأنا أتجول بالسوق بشاب يدس ورقة فى جيبى ويختفى بسرعة. ومن هذه اللحظة بدأت أول احتكاك بمجموعة من الشباب الســعودى اليســارى التوجهات. وســرعان ماتم تنظيم لقاء بعد أن شعروا بالأمان تجاهى. وأننى لن أبيعهم للسلطات. وبعد أن أدركوا أننى أثق فيهم مثلما وثقوا هم فى.

ثم تسلمت منهم بعض المنشورات. وعلمت أن عددهم ليس كبيرا كما أن خبراتهم العملية محدودة، وكذلك قدرتهم على الحركة.. كان ذلك فى جدة.

وعلى الطائرة التى أقلتنى إلى العاصمة. جلس بجوارى أحدهم، وفى مكتب وزير الإعلام بالريــاض، قابلت واحدا منهم ومن خلال هذه اللقاءات أدركت أنهم مصرون على مواصلة العمــل وتحمــل تبعاته. وعرفت أن الســلطات قد اعتقلت عددا منهــم وأن المحكمة التى شــكلت لمحاكمتهم قضت ببراءتهم لعدم وجود أدلة تدينهــم. إلا أن الملك رفض التصديق على الحكم وأمر بتشكيل محكمة أخرى لمحاكمتهم.

وقلت للرئيس إننى لم أكن أتوقع إطلاقا وجود تيارات يسارية فى السعودية. وأن هذه القيادات رغم قلة الأعداد مصرة على الاستمرار فى العمل والنضال من أجل ماتؤمن به.

وانتقلت إلى الواقعة الثانية. ورويت أننى خلال إقامتى بالفندق بجدة كنت ألتقى بزائر إنجليزى كلما توجهت إلى الكافتيريا فى المساء. فتعارفنا وكنا نلتقى لتناول طعام العشاء ثم ننتقل إلى الكافتيريا لاحتساء القهوة والبيرة الخالية من الكحول ولم يخل حديثه من التعبير عن ســخطه للتقاليد والقواعد التى تمنع تناوله الكحول وكان يتساءل لماذا توجد زجاجات الكحول فى كثير من المنازل ولاتوجد فى الفنادق؟

وسألته: ولماذا لاتغادر إذا كان الأمر شاقا عليك؟ فقال إنه مضطر للبقاء لأنه المسئول عن تنفيذ عقد تســليم المقاتلات القاذفة من طراز لايتننج الإنجليزية الصنع إلى القوات الجوية الســعودية. واسترسل فى الحديث عن الصفقة وتفاصيلها ووجدتنى أستمع إلى أسرار بالغة الأهمية. ولم أتردد فى التوجه إلى الســفارة التى كانت موجودة فى جدة وقتذاك. والتقيت بالســفير يحيى عبدالقادر والمستشار ســعد مرتضى وأخبرتهما بما قاله الخبير الإنجليزى.

وكانت دهشتهما بالغة. فالسفارة كانت تسعى بكل السبل للحصول على هذه المعلومات وها هو الحظ يقودنى إليهم ورأيت عبدالناصر يسجل شيئا على الورق الذى أمامه.

ثــم قلت له إن الواقعة الأطرف كانت لقائى برجل من حضرموت حضر إلى الســعودية وبعد سنوات أصبح من بين الرجال الأكثر ثراء بالمملكة. وهو المالك الرئيسى للبنك الأهلى.

وقد روى لى ببســاطه ودون أى أحســاس بالحرج، إنه لايعرف القراءة أو الكتابة، وقد وظــف إنجليزيــا ليقوم بالتوقيع علــى الأوراق بالنيابة عنــه، وأن كل البنوك فى الداخل والخارج تتعامل مع هذا التوقيع باعتباره توقيعى أنا وبعد سنوات من العمل قررت أن أتعلم كيف أوقع باسمى على الوثائق والمستندات وبعد أن تعلمت أنهيت التعاقد مع هذا الموظف الإنجليــزى.. ويضحك كثيرا ومن قلبه، وهو يســألنى هل تصــدق أن كل البنوك الداخلية والخارجيــة بصفــة خاصة قد رفضت توقيعى وتصورت أن هناك من يحاول تقليد توقيعى. وتوالت الاتصالات للاستفســار والاســتيضاح، ولم أجد مناصا من إعادة الموظف الإنجليزى للتوقيع نيابة عنى وعادت الأمور لتسير فى مسارها الطبيعى.

وقلــت: كان يحكى أمــام الحاضرين، وأنا منهم وهو ســعيد، وضحك الرئيس كثيرا، وأبــدى دهشــته من أن الرجل بــكل هذا الثراء الذى يجعله فى المقدمــة ولا يعرف القراءة والكتابة.

كانت المرة الأولى. التى أحكى فيها شــيئا للرئيس لم يســأل عنه. فقد كنت دائما شديد الحرص على أن تكون إجابتى على قدر الســؤال. وبجمــل واضحة وقصيرة بقدر الإمكان. كنت أخشى الوقوع فى أى تجاوز أو أخطاء. ولكن السؤال عن الملك فيصل بعد هذا الوقت الطويل وحيرتى قادنى إلى الخروج على النص.

خــلال هــذه الفترة رأيــت الرئيس بالغ الحرص على اســتجلاء الصــورة والبحث عن الحقيقــة والنظــر فيما وراء التقارير المكتوبة والشــفهية وبما يعكس قدرا من الشــك فيها، أو فلنقل قدرا كبيرا، وبما يكشف عن ثقة محدودة أو مهتزة فى عدد كبير من المسئولين.

وبــدأت أطل لأول مرة على حالة مــن يقف وحيدا على القمة ومدى معاناته بالرغم من كل السلطة والسطوة والقوة والنفوذ.

ولا أشك أنه كان يثق ثقة كبيرة فى اللواء محمد صادق ويثق فيما يقوله أو يقترحه ولا

ينسى له أنه صاحب الاقتراح ببدء حرب لاستنزاف القوات الإسرائيلية فى سيناء.

وعندما تحفظ على الاقتراح موضحا أن مصر وافقت على قرار مجلس الأمن رقم «٢٤٢» الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧م وعلى وقف إطلاق النار بكل مايترتب على ذلك من مسئوليات. قال صادق له: إن شبه جزيرة سيناء أرض محتلة وبالتالى فمن حق المواطنين بها مقاومة الاحتلال. ولايمثل ذلك أى خروج على قرار وقف إطلاق النار.

ومن جانب آخر أحاطه علما بأنه تم تشكيل منظمة سيناء العربية من أهالى سيناء للعمل ضد قوات الاحتلال وأن كل البيانات سوف تصدر عقب العمليات باسم هذه المنظمة. وهنا يمكن للفدائيين من المقاتلين المصريين العمل بحرية تحت هذه المظلة وسيجرى تلقينهم كيفية التصرف فى حالة الأسر.

كما أوضح صادق له أهمية تحطيم صورة القائد والضابط والجندى الإسرائيلى «السوبر» قبل أن تستقر فى أذهان أفراد القوات المسلحة كنتيجة للهزيمة فى معركة يونيو. وهذه الصورة لن تتحطم إلا بالعمل العسكرى الفدائى الذى ينشب الأظافر فى الجسد العسكرى الإسرائيلى.. وفيما يتعلق بتلك النقطة قام بتذكيره بما فعله القائد الإنجليزى «مونتجومرى» الذى تولى قيادة الجيش الثامن الإنجليزى لمواجهة وصول «الفيلد مارشال» الألمانى «رومل» بقواته إلى منطقة العلمين غرب الإسكندرية بعد معارك سريعة وحاسمة ألحق فيها الهزيمة بالقوات الإنجليزية وباقى القوات المتحالفة فى شمال إفريقيا. فقد بدأ مهمته بتحطيم صورة «رومل» التى استقرت فى أذهان القوات الإنجليزية كقائد فذ لايهزم.

وبهذا المنطق فاز بموافقته على بدء حرب الاستنزاف. وبعد نجاح هذه الحرب والنتائج الإيجابية التى حققتها تعاظمت ثقته فى مدير المخابرات الحربية. وتضاعف إعجابه بإبراهيم الرفاعى. وكان كل من صادق والرفاعى يدرك حقيقة مكانته عند الرئيس.

ومن خلال التجارب وعمليات الاقتراب من عبدالناصر، وتعدد اللقاءات، أخذ يقول للقريبين منه، لو أن هناك عشرة عبده مباشر لشعرت بالأمان على مصر. قال ذلك لصادق والفريق أول فوزى وللأستاذ هيكل وغيرهم. وكان اللواء صادق هو أول من نقل هذا الرأى لى ومن بعده الأستاذ هيكل أما الفريق أول فوزى فلم يفتح هذا الموضوع معى قط.

وربما لاحظ وزير الحربية أننى أتجنب قدر الإمكان الحوار معه، وظلت علاقتنا فى حدود ما يقتضيه عملى كمحرر عسكرى ومراسل حربى للأهرام.

ولم يحدث أبدا أننا تحدثنا عن موافقة الرئيس على طلب تطوعى بالمجموعة ٣٩ قتال وهو الطلب الذى رفض الموافقة عليه.

ولا أعلم كيف اســتقبل ما قاله عبدالناصر عنى ولكنى أعلم أن اللواء صادق كان الأكثر سعادة وشعورا بالرضا وكثيرا ما قال لى إننى لم أخذله وأننى أؤدى كمتطوع واجبى بصورة مرضيــة ولكن بعد أن ســألنى عبدالناصر عن الملك فيصل قــال لى ونحن فى الطائرة لزيارة قصيرة لليبيا إننى قد اجتزت امتحانا صعبا ولم يقل ما هو أكثر.

❑❑❑

الفصل الخامس

أنا .. ومظاهرات فبراير ١٩٦٨م وعبدالناصر

فى أول بروز جماهيرى، قال عبدالناصر الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الداخلية وهــو يوجــه كلماته للرأى العام «لن أخادع. ولن أضلل. ولن أســتجدى» وقد خضنا أى أنا والزملاء والأصدقاء بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية فى نقاش حول هذه الكلمات وتباينت الآراء إلا أن زميلنا النقراشى الجمل علق قائلا.. إن هذا الرجل كذاب. إنه مسيلمة المعاصر. وتصدينا له جميعا واتهمناه بالكثير من التهم، وانتظرنا أن يغير موقفه، إلا أنه أصر عليه.

ولم يكن له من تعليق على أى خطاب يلقيه بعد أن أبعد الجميع، واستقر على القمة، ســوى مســيلمة يتحدث وظللنا على خلاف معــه. ولم يحل موقفه وعناده دون اســتمرار صداقتنــا كنا نــرى الأخطاء ونعيش فى ظل ديكتاتورية عســكرية تعــادى الحرية وتحرم المواطنين من حقوقهم، ولكن الآمال فى غد أفضل جعلتنا نقبل بالنظام ورئيسه.

وبلــغ منا القبول إلى درجة الانتظام فى دورات منظمة الشــباب وأنهينا منها دورتين، وإن عبرنا عن اختلافنا مع المشرفين والمسئولين بمعسكر حلوان التدريبى للمرحلة الثانية.

فقبــل انتهاء هذه الدورة التدريبية كانت هناك محاضرة عن الاشــتراكية قبل ظهر يوم جمعة واســتمر المحاضر يتحدث طوال فترة قراءة القرآن. وبدأ خطيب الجمعة فى المسجد المجاور يخاطب المصلين من فوق المنبر، واقترب موعد إقامة الصلاة. فوقفت وقلت «الصلاة» ولم يستمع لى. فرفعت صوتى صارخا «الصلاة»، ولم يلتفت أحد لما أقول، واستمر المحاضر يلقى محاضرته، فخلعت الســترة، ولوحت بها واقفا وناديت بأعلى صوتى «الصلاة، إنها صلاة الجمعة»، وأخيرا توقف المحاضر، وانصرفنا إلى الصلاة.

بعدها اجتمع المسئولون بالمنظمة. وقرروا فصلى من المنظمة.

ثم سافرت إلى ألمانيا للدراسة. ثم عدت فى منتصف يونيو ١٩٦٧م.

وكنت قد سافرت مقتنعا بنظام عبدالناصر، وعدت بعد أن أصيبت صورته بالشروخ وبعد أن تغير موقفنا على ضوء نكبة يونيو ١٩٦٧م.

وهذا الموقف لم يؤثر على رفضنا للاحتلال الإسرائيلى وللهزيمة التى اقتنعنا أنها هزيمة

للنظام السياسى لا مجرد هزيمة عسكرية. ولم يؤثر فى إصرارنا على المشاركة فى العمل بكل الصور الممكنة للتخلص من عار الهزيمة.

وكان ما كان. جمعنا تبرعات من ألمانيا من أجل مصر، وتطوعنا للمشاركة فى العمل الفدائى، واقتربنا من الرئيس جمال عبدالناصر ومن عالمه.

وفى فبراير ١٩٦٨م، وفى أعقاب النطق بالأحكام الهزيلة الصادرة بعقاب عدد من كبار القادة العسكريين باعتبارهم من المسئولين عن الهزيمة واندلاع ثورة الرأى العام زارنا صديق قيادى بمنظمة الشباب ليخبرنا أن المنظمة تعد لمظاهرة شبابية صباح الغد، إحداها ستنطلق من جامعة القاهرة فى محاولة لامتصاص غضب الناس.

مظاهرة فى شوارع القاهرة. وبعد سنوات ممتدة من القهر لم تتحرك فيها سوى مظاهرات عامى ١٩٥٣م و١٩٥٤م ثم مظاهرة جنازة الزعيم مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد ورئيس آخر حكومة وفدية والتى تحولت إلى حركة احتجاج بالغة القوة. وكان المدهش أن النظام هو الذى سيطلق هذه المظاهرة. ورأينا أنها فرصة لإبلاغ النظام رسالة قوية ليدرك حقيقة مشاعر الناس وغضبهم.

كان الوقت متأخرا عندما زارنا هذا الصديق، ولم يكن هناك بد من التحرك بسرعة إذا ما أردنا استثمار هذه المظاهرة لنعبر عن أفكارنا ومواقفنا. وقمنا ببعض الاتصالات والزيارات. وتمت مناقشة الموقف واحتمالاته. وفى النهاية استقر أمرنا كمجموعة من الأصدقاء على سرقة المظاهرة التى ستخرج من جامعة القاهرة بعد أن يشتد عودها، وتسيطر عقلية القطيع على المتظاهرين.

ومبكرا صباح يوم ٢٤ فبراير كنا هناك مع خطة بسيطة قابلة للتنفيذ. وانتظرنا. وخرجت المظاهرة والهتافات كلها حول الأحكام التى أصدرتها المحكمة عسكرية، واجتازت أول سور أمنى أمام الجامعة، وسارت فى طريقها إلى أن وصلت بداية كوبرى الجامعة وتمكنت من اجتياز السور الثانى الذى شكلته قوات الأمن المركزى. هنا بدأنا العمل. وقمت بقيادة المظاهرة وتغيير مسار الهتافات إلى هتافات سياسية، منها «يسقط حكم الفرد الظالم» «يسقط حكم المعتقلات» «عايزين حكومة حرة.. العيشة بقت مرة» «عاملين أسود علينا.. واليهود فى سينا» «لا صدقى ولا الغول. عبدالناصر هو المسئول».

صدقى هو الفريق الأول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية. والغول هو اللواء محمد عوض الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة.

«عايزين صحافة حرة» «حرية.. حرية»

ولأن السور الأمنى عند جامع صلاح الدين بالمنيل كان أقوى من السورين السابقين فقد تركت قيادة المظاهرة للصديق إسماعيل النقيب؛ لكى أتولى قيادة المجموعة التى تتصدر المظاهرة، والاندفاع بها إلى قلب السور الأمنى لأعمل على اختراقه. وفعلا فتحت ثغرة اندفعت منها المظاهرة ونجحنا فى تجاوز هذه العقبة. وكان هناك سور آخر عند نافذة شيم الشافعى. هذا الشارع الضيق الذى يربط الكورنيش بشارع قصر العينى. وبدأ الصراخ.. حرية.. حرية.. وبقوة الاندفاع والصراخ إلى حد التشنج والبكاء. شقت المظاهرة طريقها إلى شارع قصر العينى.

وانضم المئات من المواطنين إلى المتظاهرين. وتضاعف عدد المنضمين مع كل متر تقطعه المظاهرة.

وبدا واضحا أن القوات الموجودة ليس لديها أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، وربما لأنهم لم يتوقعوا للمظاهرة أن تصل إلى هذا المدى. لم تكن لديهم تعليمات واضحة بأسلوب التعامل. وربما كان ذلك من أهم الأسباب لاستمرار المظاهرة.

واجتزنا شارع قصر العينى، واكتسبت المظاهرة قوة هائلة. وتعالت أصوات النساء بالزغاريد. فى تلك اللحظات تداولنا وبسرعة قرار المضى بالمظاهرة حتى تصل إلى منزل الرئيس بمنشية البكرى.

وتركنا مسئولية الهتاف للطلبة وقيادات من منظمة الشباب، على أن نظل بجوارهم، ليستمر الهتاف على النحو الذى نريده. وتواصل المظاهرة طريقها حتى تصل إلى شارع رمسيس بعد أن أصبحت أكثر عددا من كل التوقعات. وشارك الواقفون على جانبى الطريق بالتصفيق والتحية، وتعالت أصوات النساء بالدعاء. التف الناس بصورة مدهشة حول المظاهرة والمتظاهرين، ولوح كثيرون بقبضاتهم وهم يرددون هتافات المظاهرة. وكنت أتساءل. ما كل هذا التأييد؟

إننا ونحن نخطط مساء أمس، لم نحلم أبدا بكل هذه المشاعر التى تفجرت وعبرت عن نفسها بكل هذا الوضوح والسفور والعلانية.

وبعد أن وصلت المظاهرة إلى مستشفى الهلال الأحمر واقتربت من باب الحديد، اختلف

أسـلوب تعامل الشـرطة بشـكل جذرى. وبدون تحذير بدأ إطلاق النيران، وسقط بجوارنا طالـب ممن كانوا يقودون الهتافات مصابا بعيار نارى فـى الكتف. فحملته أنا وإسماعيل النقيب إلى مستشفى الهلال الأحمر القريب، وأدخلناه من الباب المطل على شارع الجلاء. وسـألنا طبيب الاستقبال المناوب عما به. فأجبنا بأنه مصاب برصاصة فى الكتف مجهولة المصدر. لم نشأ أن نخبره بالحقيقة حتى لا يصاب بالفزع ويتعقد الموقف. وبالطبع لم يصدق ما أخبرناه به. فزئير المتظاهرين كان عاليا وصاخبا وكذلك صوت الصدام مع قوات الأمن. فطالبنا بإبراز بطاقاتنا الشـخصية لتسـجيل البيانات المطلوبة وأمرنا بضرورة التوقيع على البلاغ فى السـجلات. فأوضحت له بجلاء إننا لن نوقع على أى أوراق ولن نكشـف عن شـخصيتنا. وإذا أراد أن يعالج المصاب فليعالجه. وإذا لم يرد فسنحمله إلى الخارج ونضعه أمام باب المستشفى لينزف حتى الموت. وليتحمل ضميره وزر ذلك.

وبدا واضحا أنه أمام اختيار صعب. وفى النهاية قال اتركاه واخرجا، وشـكرا على أى حال.

وخرجنـا لنجد بقية الفريق فى انتظارنا لمعرفة مـاذا جرى. وقصصنا عليهم ما حدث. بعدها اقترح زميلنا الضبع المحامى الصعود إلى كافتيريا فندق رمسيس لنتناول القهوة ولنطل من هذا الارتفاع على الشوارع المطلة على ميدان باب الحديد لمشاهدة آثار ما جرى. وصعدنا ثلاثـة إلى الكافيتريا أنا وإسماعيل والضبع، وعـاد الآخرون إلى منازلهم. ومن هذا الارتفاع عرفنا لماذا لجأت الشـرطة إلى إطـلاق النيران على المتظاهرين، فقـد كانت هناك مظاهرة أخـرى خرجت من جامعة عين شمـس وكانت فى طريقها تقريبا إلى مبنى مجلس الأمة.. مجلس الشـعب الآن.. ولأنها قد وصلت أمام المستشـفى القبطى بشـارع رمسيس واقتربت جدا من اللقاء بالمظاهرة القادمة من جامعة القاهرة، ولم يكن ممكنا أو مقبولا من وجهة نظر الأمن السماح بالتقاء المظاهرتين للخطورة المتوقعة. لذا تقرر منع هذا الالتقاء بكل السبل.

وقتها أدرك الرئيس خطورة الوضع. وكان فى لحظة من اللحظات قد أمر بإعداد طائرة استعدادا للخروج من مصر. إلا إنه تراجع.

وبعد أن تسـلم الرسـالة. قرر الإقدام على مجموعة من التغييرات. ويوم ٣٠ مارس أعلن بيانه الشهير الذى وعد فيه بالحريات وبالاستجابة لمطالب الشباب.

انتهت المظاهرة وواصلت حياتى.

والتقيت بالرئيس. مثلما كان الوضع قبل المظاهرة. لا أنا اشـرت إلى ما قمت به ولا هو سألنى.

وبعـد عدة شـهور كنت بمكتب مديـر المخابرات الحربية وكانت السـاعة تقترب من الرابعة بعد الظهر. وعندما استأذنت فى الانصراف، طلب أن أنتظر ليصحبنى فى سيارته لأن هناك ما يريد الحديث عنه معى. وفى طريق العودة سألنى عما إذا كان عبدالناصر قد سـألنى أو تحدث معى عن اشـتراكى بالمظاهرة. فقلت له لا لم يحدث. فقال لقد توقعت ذلك، حتى لا يضع عليك ضغوطا من أى نوع قد تؤثر على أدائك خاصة القتالى.

وقال: المهم إنه على علم بكل ما فعلت، وقرر ألا يتخذ أى إجراء ضدك أو ضد من كانوا حولك ومعك، وقد تحدث معى بشـأنك وقال، إنه يرى أن وجودك كمقاتل خلف خطوط العدو أجدى من وجودك بالمعتقل، فمصر لن تسـتفيد شـيئا من وضعك وراء الأسوار ولكنها ستستفيد من اشتراكك فى العمليات خلف خطوط العدو.

وقال إنه يفهم أسباب غضبك وغضب الجيل الذى تنتمى إليه. وغضب الأجيال الشابة. وأكد إنه على يقين أنك غضبت لحسـابك وليس لحساب هذه القوة أو تلك. وإنك لا يمكن أن تقبل العمل لحساب أحد. وهذه نقطة إيجابية لصالحك. وقد قلت للرئيس إننى أضمن ذلك.

ولا شك أنه يقدر استقلاليتك وهو يقدرها حق قدرها.

وقـال اللواء صادق: لقد أردت أن تعلم موقـف الرئيس منك. وحتى لا يغيب عنك أنه يعلم. ولتعرف أنه لا يريد أن يتوقف نشـاطك كفدائى. فرد الفعل على هذا النشـاط على امتداد الجبهة إيجابى جدا.

ولم أنـس لـه قط ذلك. لقد تصـرف كرجل دولة وبقدر عال مـن الحكمة وضبط النفس وبإعلاء للمصلحة العامة للوطن.

لقـد كان من حقـه أن يغضب، وكان من الممكن أن يعصف بى. وهذا بالنسـبة له أمر يسـير. ولكنه كان يعلم أيضا أننى وغيرى كنا على اسـتعداد لدفع الثمن وإلا ما قمنا بما قمنا به. لقد كنا نرى المصورين من حولنا. طبعا بعضهم من مصورى الصحف والتليفزيون. ولكن البعض الآخر كان من كل أجهزة الأمن. ولم نتردد فى قيادة المظاهرة أو فى الهتاف المعادى للنظام وسياساته.

ولقــد أدركــت أن لى رصيدا لدى الرئيس، بدأ بحوارى مــع الملك فيصل ثم زاد نتيجة التبرعات الألمانية وتضاعف من جراء نشــاطى الفدائى خلف خطوط العدو، ومعرفته بأننى أعفيت القوات المسلحة من كل مسئولية عنى إذا ما لحق بى أى سوء.

وكان الرجــل يقــول للجميــع إننى «بايع نفســى» كما كان يخبرهم بأننــى رغم تعدد اللقاءات لم أطلب منه شيئا قط. كما لم يحاول أن يذكر أحدا بسوء.

وكان يســتغرب الأمر؛ فكل من يلتقون به لا يذكرون أحدا بخير، ولا ينســون أنفسهم ومصالحهم.

ومع حمدى المتواصل لله على كل شىء وشكرى الذى يلهج به لسانى بل وكيانى كله، كنت وأنا أســتعيد شــريط الذكريات. أتبين أن الحياة لا تسير فى خط واحد أبدا. لابد أن يتغير المســار انكســارا وانتصارا. وأنه يجرى الانتقال من الفشل إلى النجاح ومن الصحة إلى المرض فى متوالية لا تعرف التوقف. أما الانحناءات والتراجعات والتعثر فى العقبات فأمر لابد منه. لا شىء ثابت أو مضمون أو دائم أو مستقر. فنسيج الحياة متعدد ومتباين الألوان.

وعندما أنظر للاقتراب من عالم عبدالناصر. كنت أرى الحســد والغيظ فى عيون كثيرين وأرصد فى الوقت نفسه من يتمنى منه ولو نظرة. ولم يكن كل هؤلاء يعرفون أننى كنت أدعو الله فى كل مرة أن ينتهى اللقاء على خير. لذا كنت أراعى المسافة التى تفصل بيننا دائما. وأتعمد أن تظل فى المربع نفسه. وأن تكون كلماتى محدودة مراعيا وقت الرئيس وانغماسه فــى العمل وواعيا أن طول وقت اللقاء قد لا يكون إيجابيا وكنت طوال الوقت أعرف الفرق بين الوطن والرئيس. وهذا ما ساعدنى كثيرا خلال هذه التجربة الفريدة.

وكان الوطــن هو الدافع والمحفز لحملة جمع التبرعات فى ألمانيا، وللتطوع للاشــتراك فــى العمل الفدائى فى ســيناء، وللانخراط فى مظاهرات فبرايــر ١٩٦٨م. لقد قدر الرئيس عبدالناصر ذلك. ولكنى لم أفعل كل ذلك من أجله أو من أجل وجوده على قمة السلطة.

وكان الاشتراك فى المظاهرات هو التعبير الأبرز عن التفرقة بين الرئيس والوطن.

لقد اقتربت من عالم عبدالناصر بقدر ما سمح به هو ولأسباب تتعلق به وبرؤيته وتقديره للأمور. ولكن هذا الاقتراب لم يحل بينى وبين التظاهر من أجل الوطن.

ولم يكن ضميرى ليرضى أو يقبل أن أتقاعس عن التعبير عن رفض سياسات النظام الذى يقوده عبدالناصر ويصنع قراراته وكنت على بينة من خطورة الأمر. ولكن من قال إن القتال خلف خطوط العدو فى سيناء أقل خطورة؟

لقد اخترت أن أمشى على هذه الطرق بالرغم من كل المخاطر التى تحيط بها.

ومثـل هذه القضايا لم تكن أبدا موضوعا يطرح مع الرئيس، فقد كان له عالمه ووجهات نظـره. وكان يعرف مع مـن يتحدث ويناقش مثل هذه القضايـا، وكنت أعلم أننى أنتمى لجيل مختلف أصغر سـنا، ولكن له أفكاره ووجهات نظره التى صاغها من مناخ مختلف عن المناخ الذى عاشت فيه أجيال سابقة.

وقد راعيت دائما هذه المسـافة التى تفصل بيننا والإطار الذى لا يجب أن أخرج عنه. ولم أخرج عنه سوى مرة واحدة عندما فاجأنى بالسؤال عن الملك فيصل ولم يكن أمامى من مخرج سوى الخروج عن هذا الإطار ولم أكن أعلم أننى سأضطر للخروج مرة ثانية.

حدث ذلك عندما أخبرنى أن أم كلثوم قالت: إننى صحفى «كويس» وشاطر وإن كنت قليـل الكلام. وتوقف عن مواصلة الكلام. وكان فى ذلك دعوة لى لكى أتحدث. فقلت إننى التقيـت بهـا لأول مرة وتعرفت إليها فى بيت مصطفى أمـين وبعد تكرار اللقاء فى البيت نفسـه، وجهت لى الدعوة لحضور حفل لها وأرسـلت لى تذكرتين وكانت لفتة طيبة منها بالرغم من أن الأمر ظل مقصورا على اللقاء فى المكان نفسـه. وإن كنت بين الحين والحين أنشر عنها خبرا.

ووجدته يسـألنى عن مصطفـى أمين. وكان فى ذلك الوقت مسـجونا بعد الحكم عليه فى قضية تجسـس لصالح أمريكا. فنظرت إليه وأنا تحت وطأة حالة من الدهشـة الشديدة والحـيرة والقلـق. ولم أجد مفرا من أن أسـأله أن يعطينى الأمان وأنا أضع ابتسـامة على وجهى. وضحك وهو يقول لهذه الدرجة قلت نعم. وأكثر.

قـال أعطيتك الأمـان. فقلت له. أولا هو مـن وقع على قرار تعيينـى صحفيا بجريدة الأخبار. وهذا فضل كبير لن أنسـاه له. ثم لقد دعانى إلى حفلات العشـاء التى كان يقيمها بمنزله بشكل منتظم أسبوعيا. وقدمنى إلى نجوم الصحافة والفن والسياسة، وساعدنى ذلك كثيرا فى بداية حياتى، وشـكل نقلة نوعية فى علاقاتى بهؤلاء النجوم، وكان هو الأستاذ والمرشد طوال سنوات العمل الأولى.

وبسـرعة تحفظت قائلا إننى أحكى عنه وعن دوره فى حياتى وحياة جيلى كصحفى. وواصلت قائلا: ولأننى درسـت فى القانون أن الحكم هو عنوان الحقيقة؛ فإننى أعمل بما تعلمت.

كان يسمع باهتمام، ولاحظت أنه يريد أن يسمع ما هو أكثر، وبما أنه أعطانى الأمان، فقـد واصلـت قائلا إننى اعترف له بالفضل وبالأسـتاذية فى الصحافـة، أما فى الميادين الأخرى، فذلك شـأنه واختياره، ويتولى المولى سـبحانه وتعالى حسابه على اختياراته، أما عن أخطائه على المسـرح السياسـى فإن الأمر دائما فى يد القضاء لمحاسـبته عليها إذا ما كانت تستحق الحساب.

❑❑❑

الفصل السادس

عبد الناصر وأنا ..حديث عن الجاسوسية

فى نهاية يوم شتوى شديد البرودة فى نهاية يناير عام ١٩٧٠م. تلقيت اتصالا تليفونيا من الفريق محمد صادق الذى شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى سبتمبر مــن عام ١٩٦٩م ليحل محل اللــواء أحمد إسماعيل الذى عزله الرئيس عبدالناصر كنتيجة لعملية الزعفرانة الإسرائيلية على شاطئ خليج السويس الغربى. ليطلب منى الذهاب لمقابلة الرئيس عبدالناصر فى الثامنة من صباح الغد.. ولما ســألته لماذا؟!.. قال: إن الرئيس طلب منه ذلك دون أن يخبره شيئا عن أسباب هذا اللقاء.

وقضيت وقتا أحاول فيه معرفة مايمكن أن يكون سببا لذلك، ولكننى لم أصل لشىء فلم تكن هناك أمامى أية أســباب، ولكن هناك بالضرورة أمرا هاما استدعى هذا اللقاء، وكانت النقطة التالية، ولماذا جاء الاتصال من محمد صادق وليس من المســئولين بمكتب الرئيس، وقدرت أن الرئيس اختار محمد صادق لبث الطمأنينة فى نفســى حتى لا أشــعر بالقلق من مثل هذا الاستدعاء غير المتوقع.

ولم يكن القلق بعيدا عنى.. ولكننى كنت أقول لنفســى: بالقطع لم أقع فى أى أخطاء تغضب الرئيس. فيما عدا قيادة مظاهرات فبراير ١٩٦٨م، وقد مرت على خير. لأن الرئيس بعد أن علم تصرف كرجل دولة، كما أن الحســاب على الأخطاء له وسائل وطرق أخرى.. وكنت قد بدأت أعرف أن الاقتراب من أهل الحكم فى مصر أمر صعب.. فالعيون ســتبدأ فى المتابعة، وســتخضع الاتصالات التليفونية للمراقبة، وســيجرى فرز كل من يلتقى بهم وفحص ملفاتهم. باختصار ســيعيش مكشــوفا دائما. ومثل هذه الحياة ستفرض عليه أنماطا مــن الســلوك؛ هدفها ألا يثير الشــكوك، وإذا ما فاز بقدر من الثقــة، أو فلنقل إذا ما وقع تحت إدراك أنه موضع ثقة ســواء أكانت هناك مســاحة من الثقة به أم لا، فإنه سيتصرف بما يكفل له الحفاظ على هذا القدر من الثقة.

كنــت قد بدأت أتعــرف إلى هذه الحقائق بعدما اقتربت من المشــير عبدالحكيم عامر،

وأولانى قدرا من الثقة، وفتح أمامى أبواب البوح لأطل على بعض معاناته، ولأعرف بعضا مــن آرائه فى الآخريــن.. لقد كانت نقطة البداية فى هذه الثقــة. عندما توجهت مع وفد صحفى وإعلامى من العاملين بقطاع الشــئون العسكرية لتغطية مناورة تجريها وحدات من القوات المسلحة فى سيناء فى بداية ستينيات القرن الماضى.

كنت مازلت فى أول الطريق، وأبذل ما أســتطيع من الجهد. وقدرت وأنا أرى الرئيس عبدالناصر والمشــير عامر يســيران فى المقدمة وخلفهما الجميع، أننــى لو اقتربت منهما، وســرت خلفهما، فربما أسمع خبرا، أو تعليقا مفيدا أســتخدمه فيما سوف أكتبه عن هذه المناورة. فأحدهما رئيس الجمهورية القائد الأعلى، والثانى هو المشير المسئول مسئولية كاملة عن القوات المســلحة والنائب الأول لرئيس الجمهورية. وبعد لحظات رأيت زميلا لهما من مجلس القيادة يأتى من الخلف بخطوات ســريعة محاولا اللحاق بهما ولاحظ ذلك المشير. فنظر إليه ســاخرا وباسما وســأله: «أنت عايز تعمل راسك براســنا يا ابن الجارية؟!!».. وشــاهدنى الرجــل وهو يقول ذلك ورأيت نظراته الغاضبة المتســائلة عمــا أتى بى إلى هذا المكان؟!.. وكيف تركونى أسير من خلفهما وبكل هذا القرب؟!.. ولكنه ومن قلب الغضب والتساؤلات. كان متأكدا أننى سمعت سؤاله!!

وبخطــوات متعثرة عــدت إلى الخلف للابتعاد عن نظره تماما وعاصفة من القلق تعصف بى، ومخاوف بلا حصر مما يمكن أن يلحق بى، تســيطر علىَّ، وعشرات التساؤلات تطل مــن رأســى، وتمتد أذرعها الأخطبوطيــة لتعتصرنى.. وكان مفجعا ومدهشــا أن أرى هذه القيادة اليوليوية تتراجع إلى الخلف بخطوات أسرع منى، لتتوارى بعيدا عن نظرات عامر وسخريته اللاذعة المرة.

لقد كان التساؤل عنصريا جارحا، وبه من التطاول والازدراء الكثير حتى ولو كان الأمر مزاحا!!

وأقول لنفسى: لو كان الأمر مزاحا ما تراجع الرجل بهذه الصورة..

لقد توقعت وأنا أسمع حديث المشير عامر، أن يطلق العضو اليوليوى النار عليه، أو أن يحاول قتله ولو بأظافره، أو أن يقول له «عيب» على الأقل أو أن ينســحب غاضبا ويعود إلى القاهرة فورا. ولكن أى من هذه الاختيارات لم يتحول إلى واقع وانســحب الرجل وظل على علاقته بالرئيس ونائبه الأول.

المهــم إننى عدت إلى القاهرة متســربلا بالمخاوف، وتوجهت فــورا إلى منزلى، وأمليت

التقريــر الصحفى الخاص بالمناورات لجريدة «الأخبــار» تليفونيا. وبدأت فى إعداد حقيبة انتظارا للزوار الذين سيصحبوننى إلى المعتقل تنفيذا لأوامر المشير عامر الغاضب من وجودى خلفه فى تلك اللحظة، لأسمع ما قاله.

وكلما سمعت وقع أقدام على الســلم أقول لنفســى: ها هم حضروا. وإذا ما طرق الباب أقول: حانت لحظة الذهاب وراء الشمس!!

ومر اليوم الأول والثانى، ومع اليوم الثالث بدأت أشــعر بالاطمئنان..وتراجعت مشــاعر الخوف بمرور الوقت. وحمدت الله أنها «مرت على خير». ولأنه لا يمكن أن «تسلم الجرة فى كل مرة» قررت ألا أقترب أبدا من أماكن وجود الرئيس أو المشير.

وبعد عدة شهور وصل وفد عسكرى عربى، وكان من الضرورى أن أتوجه إلى مقر القيادة العليــا لتغطيــة الزيارة والاجتماعات بين الجانبين. وعندمــا وصلت انتقلت من مكتب إلى مكتب حتى وصلت إلى مكتب شمس بدران مدير مكتب المشــير. وهناك جلست فى انتظار وصول الوفد العربى، ووصول المشير مع كثيرين من العسكريين والصحفيين.

وعندما حضر المشــير لمحنى جالســا، فنادانى وأدخلنى المكتب معه، وبدون مقدمات سألنى بعد أن دخلنا المكتب عما إذا كانت معى سيارة. فقلت: نعم.. فطلب منى أن أذهب فورا إلى مصطفى أمين. وأطلب منه «من بتاع إمبارح»!!

فســألته: هل تريد ســيادتك من مصطفى بك أن يرفت «بلية»؟!!.. وللتوضيح واصلت قائلا: أنا «بلية». وأخشــى أن يســألنى: ما هو «بتاع إمبــارح؟!».. فأعجز عن الإجابة. فقال: قُل له من الدواء الذى تناوله بالأمس.

وأصبحت الصورة أكثر وضوحا. وأسرعت بالتوجه إلى «الأخبار» والتقيت بمصطفى بك. الذى اســتغرق فى الضحك بعد أن سمع طلب المشــير، وطلب المشــير تليفونيا. وتواصلت الضحــكات. وانتهت المكالمة التليفونية. وســألنى مصطفى بك: ماذا فعلت لتوثيق علاقتك بالمشــير؟!.. فأجبت: لم أفعل أكثر مما يفعله أى زميل صحفى.. فابتسم وسلمنى ٣ علب من الدواء المطلوب. عدت بها للمشير.

وكانت نقطة البداية.

ومثل هذه الاختبارات الصعبة تفرض على الإنســان ســلوكا محــددا ومراعاة لما يقول. وأيضا لما لا يقول.

ولم تتوقف فى داخلى التساؤلات حول لقاء الغد مع الرئيس عبدالناصر واستعصى النوم علىَّ طويلا.

وقبل الموعد المحدد كنت هناك. واستقبلنى الرجل باسما ومرحبا.. وبعد أن جلست وتبادلنا جملا قصيرة عنى وعن عملى. قال لى: إن محمد «يقصد الأستاذ هيكل» قد أخبرنى. ولاحظ أننى لم أستنتج الموضوع الذى أخبره به الأستاذ هيكل فواصل قائلا: إنه أخبره عن اتصال المخابرات الأمريكية بى.. وأنه رأى أن يسمع منى كل ما يتعلق بهذا الاتصال وبدأت الأحداث تمر أمام عينى بسرعة عالية وكأنها شريط سينمائى، ولما كانت للقصة جذور تعود للخلف عدة سنوات أوضحت له إنها كانت حكاية طويلة ولا يمكن اختصارها فى الفصل الأخير، فطلب أن أحكى كل فصولها.

فقلت له: إن زميلا من زملاء الدراسة، انضم للعمل بوزارة الخارجية، وسافر للعمل فى ألبانيا.. ولأنه عاشق للنساء والمال.. فقد انغمس فى اللذة بقوة كما أصبح واحدا من الذين يعملون بالتهريب من وإلى دول أوربا الشرقية.. وتمكن من جمع ثروة صغيرة.

وعندما وصلت إلى ألمانيا الشرقية للدراسة، قمت بالاتصال بزملاء الدراسة الذين أوفدتهم الخارجية للعمل فى دول أوربا، خاصة الشرقية، وبالأصدقاء والزملاء الذين سافروا إلى أوربا للدراسة بعد الحصول على التوجيهية «شهادة إتمام الدراسة الثانوية» فى منتصف الخمسينيات «من القرن الماضى».

وقد طلب هذا الزميل الموجود فى «تيرانا» أن نجتمع فى «بودابست» عاصمة المجر للاحتفال بعيد الأضحى الذى حل فى نهاية شتاء عامى ١٩٦٦م. ..١٩٦٧م وتم الاتفاق على أن ألتقى به فى «بلجراد»، ويصحبنى بعد ذلك فى جولة بالسيارة لزيارة المجر والنمسا، ثم نعود للالتقاء مع باقى الزملاء والأصدقاء. وخلال هذه الجولة عشت صورا من صور التهريب، وعرفت بعضا من أسرارها.

وسألنى عبدالناصر عما إذا كنت قد كتبت عن هذه التجربة أو أخبرت بها أحدا؟!.. فنفيت هذا وذاك.. فسألنى: ولماذا لم تتحدث مع أحد؟!.. وقلت له: لم أفكر فى ذلك إطلاقا. فقد كنت بصحبة زميل. ولولا ثقته ما عشت هذه التجربة ولما عرفت شيئا عن عمليات التهريب التى يشارك فيها معظم العاملين بالسفارات فى دول أوربا الشرقية بما فى ذلك الاتحاد السوفييتى، كما كان هو الطريق لأعرف كثيرا من المشاركين فى ذلك سواء من المصريين أو النمساويين أو المجريين.

وواصلت قائلا: إن زميلا مصريا يعمل بالمجر قد دعانى للسهر فى ناد ليلى بالعاصمة المجريـة. وفى نهاية السـهرة دفع مبلغا كبـيرا جدا يتجاوز بكثير المبلـغ الذى يتقاضاه من الخارجية كمرتب شـهرى، كما كان سـخيا فى دفع البقشيش.. وأثناء دفع الحساب والبقشيش عرفت سبب الترحيب به وبنا عند وصولنا وتسابق الجميع على إرضائه.

المهم ظللنا جميعا على اتصال طوال فترة الدراسة..

وبعد عودتى لمصر فى يونيه ١٩٦٧م. علمت من بعض الأصدقاء أن زميلنا حسـن الذى يعمل بتيرانا قد أصيب بمرض جنسى نتيجة إسرافه ومعاشرته لعدد من المحترفات ويواجه احتمال فقدان ذكورته.. وقد تنقل من مستشفى إلى مسشتفى بحثا عن العلاج.. وكان خوفه عاتيا من فقدان ذكورته.. وانتهى به الأمر فى مستشفى مشهور ببودابست.

وبدأ يشـعر بتحسـن، وقد أحسنت المرضة المسـئولة عنه التعامل معه.. وشيئا فشيئا سـاعدته على النجاح فى معاشـرتها. وعندما حاول مع أخرى واجه الفشل.. ووقف على مشارف الاكتئاب.. ونصحه الأصدقاء بالزواج من هذه المرضة التى ساعدته على النجاح.. وقـد كان.. وحتـى لا يفقـد عمله بالخارجية بسـبب هذا الزواج، فقـد أخفى الأمر عن المسـئولين.. وواجه مشـكلة كبيرة عندما انتهـت فترة عمله فى ألبانيـا، وتقررت عودته لمصر. فقد كانت الظروف لا تسـمح له باصطحاب زوجة لا تعلم القاهرة عنها شـيئا. كما أن الإفصـاح عن هذا الزواج قد ينهى عمله بـوزارة الخارجية.. وإن تصحيح الأمر يتطلب التقدم بطلب للزواج من أجنبية.. وقد يوافق المسـئولون على الطلب.. وقد يرفضون.. وفى كل الأحوال لن يعود إلى مصر بدونها.. فهى العلاج.. وهى مصدر الذكورة والسعادة والثقة بالنفس.. باختصار كان يراها الحياة.. ولم يكن مطروحا أبدا أن يضحى بهذه الحياة.

وقـرر الإقدام علـى محاولة تهريبها حتـى وإن كانت لا تحمل وثائق سـفر.. كما أن السلطات فى كل دول أوربا الشرقية كانت تمنع خروج المواطنين بصفة عامة إلا فى حالات استثنائية. أى أن خروجها من المجر لن يتم إلا بطريقة غير مشروعة!!.. وبعد أن شحن متعلقاته. توجه إلى السيارة مع عدد كبير من الحقائب إلى بودابست.. ومن هناك اصطحب زوجته فى رحلة هروب طويلة من المجر إلى يوغوسلافيا واليونان وتركيا وسوريا ولبنان..

وكانت الخطة بسـيطة.. تختفى زوجته تحـت الحقائب قبل اجتياز منطقة الحدود.. بعدها تجلس بجواره للاستمتاع بالرحلة والصحبة..

وبهـذه الطريقة تمكن مـن الوصول إلى بيروت.. ومن هناك بـدأ خطوته الأكثر خطورة وجسارة.. لقد كان على يقين أنه لن يتمكن من دخول مصر وهى بصحبته إلا إذا كان معها جواز سـفر صالح. وقد حاول شـراء مثل هذا الجواز.. وكان على استعداد لدفع الكثير من المال. ولكنه فشل.

وأخـيرا لجأ إلى الحـل الأخير الذى فكر فيه كثيرا.. وطرق باب السـفارة الأمريكية.. وأخيرا وبعد أن تأكدوا من جديته وإصراره سمحوا له بأن يقص عليهم الأسباب التى دفعته إلى هذه الخطوة؟!.. وانتهى الأمر بموافقته على العمل لحسابهم مقابل تزويده بجواز سفر لبنانى لزوجته!!

ووصل إلى القاهرة بعد انتهاء فترة تدريبه.. ولم يكد يسـتقر، حتى طلب منى مساعدته فـى لقاء مدير المخابرات العامة.. وقلت له: ليسـت لى علاقـة وثيقة به.. وطلبت منه أن يطرق بابهم مثلما طرق باب السفارة الأمريكية.. فقال: إن الأمر فى مصر مختلف.. وأفضل أن أبدأ وأنا فى حماية المدير حتى لا أتعرض لما يسوء إذا ما بدأت مع صغار الموظفين..

واقترحت عليه أن أخبر الأستاذ هيكل وأطلب منه النصيحة فاستحسن الفكرة.. ورويت للأستاذ هيكل القصة فقال سألتقى بالأستاذ حسن أولا وأسمع منه.. وفعلا تم اللقاء. بعدها اتصل الأسـتاذ هيكل بأمين هويدى.. وذهب حسـن للقاء مدير المخابـرات العامة.. وبدأ مشواره كجاسوس مزدوج.

وفى ليلة من ليالى شـهر ديسمبر ١٩٦٩م. كان على الذهاب إلى مكتب رئيس الأركان؛ فقد كتبت موضوعا صحفيا وأرسـلته للمجموعة ٢٦ التابعة للمخابرات الحربية.. وبعد أن قرأه المسـئولون بها وأرسـلوه لمدير المخابرات الحربية الذى رأى ضرورة عرضه على رئيس الأركان.

وكنـت قد قضيت اليوم ما بين إعداد هذا الموضوع ومتابعته، وكان المسـئولون بالأهرام يضغطون من أجل بذل مزيد من الجهود للحصول على الموافقة على نشره، ورأيت الاتصال بمكتب رئيس الأركان، فقالوا إنه مشغول جدا ولم يجد وقتا لقراءة هذا التقرير. فقررت أن أتوجه إلى هناك علنى أستطيع الخروج بنتيجة إيجابية.

فى تلك اللحظات حضر الأستاذ حسن لزيارتى فى الأهرام، كان يريد استشارتى حول جواز سفر زوجته التى اكتشف المسئولون بالسفارة اللبنانية وجود خطأ به، فأخبرته إننى

فــى الطريق إلى وزارة الحربية بمدينة نصر، فعرض أن يقوم بتوصيلى وشــرح الأمر والمأزق الــذى يواجهه ونحن فى طريقنا إلى هناك، ووافقت وظل يحكى إلى أن وصلت إلى مدخل الوزارة بشــارع الطــيران، كانت الليلة ممطرة وباردة، واســتخدم جنود الحراســة والأمن كشافات ضوئية لمعرفة من بالسيارة، وعندما تعرفوا على سمحوا لى بالدخول فورا.

وفوجىء حســن بهذا التصرف، وتساءل قائلا: تدخل وزارة الحربية هكذا، دون سؤال أو استفسار!!

واتجهــت إلى مكتب رئيــس الأركان وأنا أتبادل التحية مع جميــع من ألتقى بهم من قوات الأمن والحراسة.

وجلسنا لفترة فى المكتب إلى أن سمح وقت رئيس الأركان باستقبالى.. ومد يده بسرعة إلى التقرير وقرأه.. ثم وقع بالتصديق على النشر. ومن مكتبه اتصلت تليفونيا بالأهرام. وأبلغتهم بالموافقة وأننى فى الطريق إليهم.

وأعادنى حســن إلى الأهرام، فطلبت منه أن ينتظــر ليصحبنى إلى المنزل. ففعل.. وفى الطريق أخبرته أنه ســيذهب إلى بيروت وعليه أن يطلب من المســئول بالســفارة الأمريكية اســتبدال جواز الســفر بجواز آخر بلا أخطاء. وأن يحكى لهم أن السفارة اللبنانية بالقاهرة قد شكت فى أن الجواز الذى معه مزيف.. فقال: إن أحدا فى السفارة لم يقل إنه مزيف. فأخبرته أنهم أرسلوا صورة الجواز للسلطات اللبنانية فى بيروت ليعرفوا الحقيقة.. قبل أن يواجهوك بمثل هذا الاتهام وهم يعلمون وظيفتك وطبيعة مسئولياتك.

وســألنى عبدالناصر: ألم يتوصل هو إلى هذا الاســتنتاج؟ فقلت له: لا أســتطيع تأكيد ذلك.. ولكنه عندما قص علىَّ الأمر قلت له ما استخلصته مما رواه لى..

ثم ســألنى: هل كان يحيطك علما بما يقوم به؟!.. فقلت له، فى بداية الأمر أوضح لى أنه يعمل الآن كجاسوس مزدوج وأنه تلقى فى مصر تدريبا جيدا. فطلبت منه ألا يخبرنى بأى شىء وأن يتوقف أو يخفف من زياراته لى.

وواصلــت قائلا: وبعد مرور عدة أســابيع حضر إلى منزلى وســألنى: ألا تريد أن تلعب معى؟!.. فأجبته: لا أفهم.. فقال: العم سام يخطب ودك.. فقد حكيت لهم فى بيروت.. كيف دخلنا وزارة الحربية، وكيف شققت طريقك داخل الوزارة. ثم استقبال رئيس الأركان لك.. وقد أرسلوا معى شيكا على بياض لأسلمه لك فى حالة موافقتك على أن تلعب معنا.

كما أن معى لك بطاقات سفر مفتوحة إلى بيروت أو لأى بلد تشاء لكى تلتقى بهم. فرفضت الأمر فورا.. وأمرته بألا أراه منذ تلك اللحظة بأى صورة من الصور.

والتقيت بالأستاذ هيكل وأخبرته بما جرى. فشكرنى وقال إننى فعلت الصواب.

وبعد ذلك ذهب حسن للأستاذ هيكل وأخبره بالقصة وبالرفض. وقال له إنهم فى بيروت يتلهفون للاتصال به وبإقناعه بكل الوسائل بالموافقة على العمل معهم.. ويرون أن ذلك سيكون نجاحا كبيرا، فطلب منه الأستاذ هيكل الابتعاد عنى.

وقلت للرئيس قبل أن أتوقف عن الكلام: هذه هى القصة.. فتحدث عبدالناصر قائلا: لقد أبلغنى هيكل بالقصة، فرأيت أن أسمعها منك.. وفى الوقت نفسه طلبت تقريرا من أمين عن حسن.. ويبدو أنه يبلى معهم بلاءً حسنا.

وسألنى عن مرتبى فأخبرته.. فعلق قائلا: تتقاضى مثل هذا المرتب وترفض شيكا على بياض؟!!.. وواصل قائلا: كم صحفيا يمكنه أن يتصرف مثلك؟!!.. ولم أجب لأننى أعلم أنه يعلم حقائق كثيرة عما يجرى فى الوسط الصحفى. وأن الصحافة والصحفيين هى اهتمامه الثانى بعد القوات المسلحة.. وأيا كانت إجابتى فهى لن تضيف له شيئا.

ويقول الرئيس: إن أمين سألنى: ولماذا لا نقنع الأستاذ عبده بالعمل كجاسوس مزدوج؟!.. وقتها سنعمل على تدريبه جيدا.. وسيكون تحت عيوننا باستمرار.. وهو يرى أن ذلك سيكون مفيدا لمصر.

وكانت إجابتى: إن مثل هذه المهمة تتطلب ذكاء وسرعة بديهة وقدرة هائلة على الأداء وإخفاء المشاعر والسيطرة عليها ومكر ودهاء.. بالإضافة إلى سعة الحيلة. وإننى لا أتمتع بمثل هذه الصفات.

وابتسم عبدالناصر وهو يقول: لقد توقعت أن أسمع ذلك منك.. وتوقعت أن رفضك سيسبق تفكيرك.. وواصل قائلا: كما أن أمين يرى أن الأمريكيين سيحاولون الاتصال بك مرة أخرى.. واقترح وضعك تحت المراقبة حماية لك.. وقد أمرته بالابتعاد عنك تماما.

وفى نهاية اللقاء قال وهو يقف ليودعنى بحرارة ومودة: «إننى أشكرك على هذا الموقف وأقدر لك ما فعلت».

❑❑❑

الفصل السابع

القذافى حاول خداع عبد الناصر!

قبل أن يصل معمر القذافى إلى القاهرة لأول مرة بعد نجاح الانقلاب العسكرى الذى قاده يوم أول سبتمبر عام ١٩٦٩م لاستكمال بناء الجسور مع جمال عبدالناصر، والتعرف إليه وجها لوجه، والحديث معه والإنصات إليه باعتباره الملهم والزعيم القومى الذى لا منازع له بالرغم من هزيمة يونيه ١٩٦٧م. لم يشأ عبدالناصر أن يلتقى به فور وصوله.. كان فى حاجة إلى المزيد من المعلومات عن هذا النقيب أو الملازم أول.. كان يريد أن يقرأ خريطة أفكاره وتطلعاته. وكانت خبرات عبدالناصر الانقلابية ماثلة دائما وحاضرة فى ذاكرته، فقد سبق أن سار على الدرب نفسه وخبره.. وتعرف على أسراره.. لذا كانت تساوره شكوك تقلقه.. ومخاوف من هذا الجار ومن أصحاب الفضل أو الأيادى البيضاء عليه.

والذى لا شك فيه أن القذافى كان يعتبر أن ما قام به فى ليبيا هو امتداد طبيعى ومنطقى لما جرى فى مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

ولم تكن القاهرة بعيدة عما كان يجرى فى ليبيا.. وقد وصلت مجموعة تقارير عن رحلة الملازم أول معمر القذافى إلى لندن قبل الانخراط بشكل جاد فى التحضير للانقلاب على النظام الملكى السنوسى.

وبعد نجاح الانقلاب، أوفد عبدالناصر الأستاذ محمد حسنين هيكل للقاء أصحاب السلطة الجدد فى ليبيا خاصة معمر القذافى. وهناك فى طرابلس، استقبلوا هيكل بحفاوة شديدة.

وعاد هيكل ليكتب لقراء الأهرام تقريرا متميزا وللرئيس عبدالناصر تقريرا مختلفا. حيث تضمن الأسرار التى لا يمكن نشرها وقراءته الشخصية للمجموعة الانقلابية الشابة.

وقد رافق هيكل فى رحلته السريعة إلى ليبيا أستاذ فن التصوير الصحفى الكبير محمد يوسف الذى التقط مئات الصور لمعمر القذافى ولباقى أعضاء المجلس الثورى، وكانت أول صور تنشر على الصفحة الأولى بجريدة الأهرام للقائد الليبى من تصوير محمد يوسف كما أنها كانت أول صورة تنشر له فى العالم، ولذلك قصة، فحتى لحظة وصول هيكل للعاصمة

الليبية، لم تنشـر لمعمـر ولا لأى من قادة الثورة صورة صحفيـة أو تليفزيونية، وكان ذلك اختيارهم لقد أرادوا الابتعاد عن الأضواء ولكن هيكل تمكن من إقناعهم بأهمية نشر صورهم خاصة صورة القائد معمر حتى لايتمكن أحد من سرقة الثورة وقد اقتنعوا ووافقوا على النشر خاصة لصورة معمر.

وقـرأ عبدالناصـر التقرير.. واسـتمع إلى انطباعات هيكل وتقييمه لهـم وللموقف. كما أمضى وقتا طويلا فى تأمل الصور.. حيث كان يفضل التعرف على الشـخصيات السياسية والقيادية من صورها وكثيرا ما قال، إنه يمكنه التعرف إلى أبعاد الشخصية وقراءة أفكارهم من الصور، وكان هيكل يعرف ذلك وكثيرا مازوده بعشـرات الملفات من صور الشـخصيات العالميـة والعربية لكى يمـارس منهجه المفضل، ودائما ما كان يطلـب ملفات صور الملوك والرؤساء والزعماء قبل أن يلتقى بهم، ليعرف من الصور ما يريد وليقرأ من خلالها مستقبل علاقاتهـم به وبمصـر... ولأنه رأى تأجيل اللقاء بالقذافى. فقـد وقع اختياره على الفريق محمد صادق رئيس الأركان، ليكون الشـخص الذى سـيوفر له المعلومات التى يريدها عن القذافى.. فقد كان ملف الانقلاب أمامه.. وسبق أن تحدثا بشأنه.. عندما كان صادق يشغل منصب مدير المخابرات الحربية. وقدر رئيس الجمهورية أن خبرات الرجل كملحق حربى متألق فى ألمانيا ولنجاحاته البارزة وقتذاك وكمدير مخابرات كفء. تجعله أنسب من يتولى هذه المهمة.

وكان قـد تم إبـلاغ القذافى أن ارتباطـات عبدالناصر تحول بينه وبين اسـتقباله فور وصولـه، وأن الرئيس يقـترح عليه أن يزور الجبهة؛ خاصة ومعارك الاسـتنزاف تتواصل بنجاح.. ليتعرف عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى والضغوط التى يشكلها من خلال اللقاء المباشر مع القادة والضباط والجنود. وتم إبلاغه أن الفريق محمد صادق رئيس الأركان سيصحبه خلال هذه الزيارة وطلب عبدالناصر من صادق أن يحاول معرفة الكثير عنه وعن نواياه ومخططاته وأسـلوبه فى التفكير وتأثيره على المجموعة الثورية وموقفهم منه وأسرار الانقلاب والقوى التى يسـتند إليها داخليا وخارجيا وقوة التأثير القبلى، وماذا يتوقع من القاهرة، ويستقبل علاقات ليبيا بدول الجوار وباقى الدول العربية وبالدول الأوربية خاصة إيطاليا وبالقوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى.

واتجـه القذافى بصحبة الفريق صـادق إلى قيادة الجيش الثانى الميدانى بالإسماعيلية..

واستقل أعضاء الوفد الليبى عددا من السيارات بصحبة مجموعة من القادة.. اختارها صادق بعناية؛ لتشاركه فى إنجاز المهمة كما أرادها عبدالناصر.

وبعد انتهاء اللقاء والاستماع لشرح اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى الميدانى كانت هناك دعوة لتناول الشـاى.. وأثناء ذلك طاف الفريق مـع معمر وبدأ فى تقديم القادة له.. وعندما وصل إلى المكان الذى أقف فيه مع عدد من مساعدى رئيس الأركان قال له: سأقدم لـك الصحفى والمدنى الوحيد الذى يشـارك فى عمليات الكومانـدوز خلف خطوط العدو. وتسـاءل القذافى: كيف يشارك وهو مدنى؟!.. فقال له صادق: إنها حكاية طويلة يمكنك أن تسمعها منه. وقال القائد الليبى موجهًا حديثه إلى: سنلتقى بإذن الله فى المساء.

وبعـد التأكد من إجـراءات تأمين الوصول إلى المواقع الأمامية تمت الزيارة بعدد محدود حتى لا تتكرر مأساة الشهيد عبدالمنعم رياض. واستمع القذافى إلى قصة استشهاده، وعرف بشكل عملى صعوبة اقتحام القناة كمانع مائى محصن ومدافع عنه جيدا بخط دفاعى شديد التحصين..

وتطرق حديثه لاحتمالات الحرب.. فأكد له صادق أن مصر سـتحارب لتحرير أرضها المحتلة.. ولكنها فى حاجة أولا لاسـتكمال احتياجاتها من الأسـلحة والذخائر والمعدات والأجهـزة. وسـأل القذافى ببراءة عن العوائق التى تحـول دون ذلك. وباختصار أوضح له رئيس الأركان أن مماطلة الاتحاد السـوفييتى فى الوفاء بالتعاقدات وعدم القدرة على شراء السلاح من مصادر أخرى سواء لنقص التمويل أو لرفض بعض المصادر بيع السلاح لمصر.

وبغضـب صاحبه انفعـال. قال القذافى: ولماذا لا تدفع الـدول العربية الغنية ثمن هذا السـلاح؟!.. واستطرد قائلا: إن ليبيا ستقوم بدورها وستطالب باقى الدول العربية بتحمل التزاماتها.

وخلال الاجتماع العسـكرى سأل واستفسر عن عمليات التخطيط والاستعداد للحرب.. فـرد عليه القادة مؤكدين أن الحرب قادمة.. وأن معارك الاسـتنزاف مرحلة ضرورية فى اطار الاسـتعداد للحرب.. وبجدية كاملة اقترح القائد الليبى نقل ثلاث فرق من المدرعات والمشـاة الميكانيكية إلى الجبهة السـورية وبدء حرب التحرير من هناك. وقال: إذا كانت القناة كمانع مائى تحول بين مصر وبدء الحرب قبل الاستعداد لذلك، فإن الجبهة السورية لا يوجد بها لنفس المانع المائى. ويمكن للقوات الهجوم على إسـرائيل من هناك وتحقيق

الانتصار وتحرير الأراضى المحتلة.. ووجد القذافى استحسانا وتشجيعا وتأييدا من باقى أعضاء الوفد الليبى.

وأمسك الفريق صادق بأول الخيط وتساءل: وكيف سيجرى نقل هذه القوات إلى سوريا؟!.. وهل سيتم ذلك بحرا أم جوا؟!.. ثم أجاب: إن مصر لا تملك الأسطول الجوى القادر على نقل هذه القوات جوا.. كما أنها لا تملك سفن نقل بحرية كافية لمثل هذه العملية.

وكان رئيس الأركان جادا وهو يشرح هذه العقبات للقذافى ولأعضاء الوفد المرافق له.. وفى الوقت نفسه كان واضحا وبسيطا.. وكان هدفه إقناع الجميع حتى لا يعودوا لطرح مثل هذه الاقتراحات.

نعم هم عسكريون وحكام، ولكنهم فى حاجة إلى وقت لدراسة الواقع بكل أبعاده.. وشعرت فى نهاية الاجتماع أن الوفد الليبى لم يصل إلى مرحلة الاقتناع. لقد سمعوا ولم يكن لديهم المعلومات أو الحقائق العسكرية التى يردون بها على ما سمعوه.. وبالنسبة لهم ظلوا على اقتناع بأن الاقتراح أو الخطة التى طرحها معمر خطة عبقرية. ورأوا فيها سبيلا عمليا لتحرير الأراضى العربية المحتلة وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية.

وفى المساء أرسل القذافى فى طلبى.. وباسما مندهشا سألنى عما إذا كنت أشارك حقا فى عمليات الكوماندوز خلف خطوط العدو؟!.. فأكدت له الأمر.

وطلب أن يسمع حكاية المدنى الفدائى.. فحكيتها له.. ثم سأل عن العمليات التى نقوم بها. فبدأت بالحديث عن إبراهيم الرفاعى قائد المجموعة، وأنه يعد القائد النموذج والقدوة لكل مقاتلى المجموعة من الضباط والصف والجنود.

واتصل تليفونيا بالفريق صادق وطلب لقاء إبراهيم الرفاعى الذى سمع عنه منى الآن.. فاستجاب الرجل وأخبره أنه سيكلف مدير مكتبه بالاتصال بالرفاعى ويطلب منه الحضور إلى الإسماعيلية.

والتفت القذافى يسألنى: متى أتوقع وصول قائد قوات الكوماندوز؟!.. فقلت: لن يستغرق الأمر ٩٠ دقيقة من لحظة العثور عليه تليفونيا. فقال: هل هناك فرصة أن نراه الليلة؟!.. فأجبته: لو أنك تحب السهر فسأترك له خبرا لكى يأتى إلى هنا فور وصوله.

وبدأ القذافى يسألنى عن القوات الموجودة بالجبهة؟!.. فقلت له كما رأيت.. بعض

مواقــع الجيــش الثانى.. هناك جيش ثالث فــى القطاع الجنوبى مــن الجبهة.. والقوات الموجــودة كافية جدا لخوض معركة دفاعيــة ناجحة ضد قوات العدو.. وأن هناك عمليات تدريب مســتمرة لرفع مســتوى الكفاءة القتالية.. وهناك فرق دفــاع جوى وقوات جوية.. يجرى دعمها باســتمرار ســواء بإنشــاء قواعد دفاع جوى جديدة وقواعد جوية إضافية فى العمــق. ولكــن العقبات كثيرة وفى مقدمتهــا تأخر وصول الأســلحة والمعدات من الاتحاد الســوفييتى، وعدم توفر التمويل الكافى الذى يســمح بشــراء أسلحة من خارج دول الكتلة الشرقية.

وســألنى مباشــرة عن الرئيس عبدالناصر؟!.. وعن آخر مرة رأيته فيها؟!.. فقلت له: إننــى أراه على فترات متباعدة.. والأمر يتوقف على وقته وإرادته. فســألنى عن صحته.. فقلــت إنــه بصحة جيــدة بالرغم مما يعانيه مــن متاعب صحية. فحــاول أن يعرف أكثر فأوضحت له أنه سيلتقى بالرئيس بعد ساعات وسيدرك بنفسه أنه فى حالة صحية جيدة. وأراد أن يعرف المزيد.. فانتحى بى فى صالون آخر.. واستفسر عما إذا كان الرئيس يرحب بالحديث حول كل القضايا؟!.. وقلت له: إن الرئيس اعتبر نجاح الثورة فى ليبيا نجاحا شــخصيا له. وقد ارتفعت معنوياته بشــكل ملحوظ بعدها.. وبعدها تســلم تقرير الأســتاذ هيــكل.. وبــدا فى الصور التى التقطت له أكثر شــبابا. وإننى أتوقع أن يصبح الرئيس فى حالة أفضل صحيا ومعنويا بمجرد أن يلتقى بكم ويســمع منكم. وثق أنه ســيرحب بطرح كل الموضوعــات التى تريد أن تطرحها. وســيكون واضحــا وصريحا جدا وهو يتحدث عن العلاقات بين بلدينا. وعن تصوراته المستقبلية لهذه العلاقات.

فقال معمر: إننا على استعداد للتضحية بأنفسنا من أجل مصر والقضايا العربية. وسيجد منا كل ما يسعده قولا وفعلا.

ودق جــرس التليفون. وقال من تلقى المكالمة إن مدير مكتب الفريق صادق يســأل: هل يحضر إبراهيم الرفاعى الآن.. أم ينتظر للغد؟!.. فقال القذافى: أخبره يا أخى أن يتفضل الآن.

والتقى القذافى وأعضاء الوفد بقائد الكوماندوز المصرى وســألوه كثيرا وسمعوا منه. وكان إعجابهم وتقديرهم له كبيرا. كما نجح الرفاعى فى ترك انطباع جيد لديهم جميعا. وخلال اللقاء عرضوا عليه تدريب مجموعة من الضباط الليبيين ســواء فى مصر أو فى ليبيا.. فقال إنه مستعد لذلك جدا. ويرحب به.. ولكن بعد عرض الأمر على القيادات المسئولة.

وانتهـت الزيارة التى أعتقد أنها كانت مفيدة جـدا للوفد الليبى. فقد وقفوا على الحد الأمامى للقوات غرب القناة، وشـاهدوا العلم الإسـرائيلى مرفوعا على المواقع الإسـرائيلية الحصينة شرق القناة.. ورصدوا بعضا من تحركات القوات الإسرائيلية شرقا. وبدأوا يتعرفون بشـكل مباشـر إلى معنى الاحتلال ومرارته فى حلوق المصريين الرابضين فى مواقعهم غرب القناة.

وعادوا إلى القاهرة وهم على اقتناع بأن زيارة الجبهة كانت الإنجاز المهم لهم قبل لقائهم بالرئيس عبدالناصر الذى اتخذوا منه ملهما ومرشدا وقدوة.

وقـدم الفريق صادق التقرير المطلـوب للرئيس عبدالناصر.. وحكـى له ما جرى خلال الزيارة بما فى ذلك الاقتراح الخاص بنقل ثلاث فرق مصرية مدرعة ومشـاة ميكانيكية إلى الجبهة السورية وبدء حرب التحرير من هناك.

بعدها التقى الرئيس عبدالناصر بالقذافى. وكان لقاءً رائعا رفع معنويات الرئيس المصرى؛ خاصة وهو يسمع أحاديث التقدير والإعجاب من كل أعضاء الوفد.

وطلـب الوفـد الليبى من مصر دعمه دعمـا كاملا بالخبرات الفنيـة والأمنية والإدارية والقانونية.. واستجابت مصر.

وانتهت الزيارة.. ولكن ظل الترقب قائما.. وبعد أسابيع كنت بمكتب الرئيس، فسألنى عن معمر، فأجبت قائلا، إنه شاب أخرق وخطير فتساءل، بتقول «أخرق وخطير؟» فقلت له، يافخامة الرئيس إن قائد الثورة الليبية ضابط برتبة نقيب أو ملازم أول، وقد طرح على العسكريين المصريين وعلى رأسهم رئيس الأركان المصرى اقتراحا بنقل ثلاث فرق مصرية إلى الجبهة السـورية وبدء حرب التحرير من هناك، وقد أوضح له الفريق محمد صادق حقائق الموقف العسكرى، ورد على هذا الاقتراح من وجهة النظر العسكرية، وأبرز حقيقة العقبات التى تحول دون وضعه موضع التنفيذ ولم يترك شـيئا يتعلق بهذه القضية إلا وتحدث عنه باسـتفاضة، وكنت أتوقـع أن يقتنع معمر القذافى واللذين معـه بما طرحه رئيس الأركان المصرى، وهو بالنسـبة لهم الأقدم رتبة والأكثر علما وخبرة ودراية، وإن يتخلوا عن الفكرة تمامـا، ولكننى فوجئت وأنا أجلس معهم بإصرارهم على الفكرة، ويرون أنها خطة عبقرية سـتؤدى إلى الإسـراع بالمعركة دون انتظار للظروف والامكانات التى تسمح باقتحام القناة، وستقود إلى النصر وإلحاق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية وتحرير الأراضى المحتلة، وتوقعت

المزيد من هذه الأفكار العبقرية، وسكت الرئيس ولم يرد، فاستأذنت فى الانصراف وأنا أشعر بالندم لأننى تسرعت بالإجابة، ووصفت القذافى بهذا الوصف، وللتخفيف من وطأة الإحساس بالندم، قلت لنفسى، لقد سألنى، فأجبته بصدق ووفقا لقراءتى لشخصيته ولمواقفه ولأفعاله وردود أفعاله من خلال الاقتراب منه والحوار معه.

بعدها استغل القذافى ثقة عبدالناصر فيه؛ خاصة بعد أن أعلن أنه يرى فيه شبابه. وطرح عليه فى زيارته التالية قضية جديدة بمنطق سهل وواضح وواقعى. حيث قال لعبدالناصر: إن الشواطئ الليبية على البحر المتوسط طويلة. وتمتد لأكثر من ألفى كيلو متر.. والإمكانيات الليبية الحالية لا يمكنها أن توفر الحماية لها. وفى ظل هذا الوضع فإن أمن ليبيا فى خطر، ويمكن للآخرين اختراق هذه الشواطئ والقيام بأى أعمال عدائية. وأشار إلى وجود قوى كثيرة معادية تنتشر أساطيلها فى البحر المتوسط. وأكد أن هذه القوات تملك قدرات هائلة وإن لم تخطط لعمليات عدائية، فإنها تستطيع أن تمارس الضغوط على ليبيا.

وقال: إنه حتى ولو سلح الشعب الليبى وطلب منه حراسة وحماية هذه الشواطئ، فإن النتيجة لن تكون مطمئنة.

وبعد هذه المقدمة وصل إلى الهدف الذى جاء من أجله، حيث قال: لقد جئت إليك لأستعين بك لحماية الثورة وليبيا وأهلها من غدر الغادرين.

فسأله عبدالناصر.. وكيف أفعل ذلك؟!

فأجابه: بالموافقة على إرسال قطع من الأسطول البحرى المصرى إلى المياه الإقليمية الليبية لكى تقوم بحماية الشواطئ الليبية.. وليبيا على استعداد لتحمل كافة الأعباء المالية..

ورد عليه عبدالناصر قائلا: إن القوات المسلحة المصرية ليست للإيجار.. كما أنها ليست جيشا من المرتزقة. ولكن وبما أن هذه المسئولية واجب قومى، فإن مصر ستتحمله عن طيب خاطر وبلا مقابل..وبعد هذه الموافقة التى أتت على هواه ومحققة لهدفه. قال: إننى أرجو أن تكون الغواصات من بين قطع هذه القوة..

فأكد له عبدالناصر إنه سيأمر قائد القوات البحرية بذلك، وسيطلب من وزير الحربية متابعة تنفيذ هذا الأمر بنفسه.

وهنا قال معمر: إذا ما وصلت هذه القوة البحرية إلى ليبيا.. فإننى أتطلع إلى أن يتلقى قائدها أوامره منى؛ حيث سيكون فى المياه الإقليمية الليبية.

.. وبالرغم من الدهشة والشك.. وافق عبدالناصر على أن تكون هذه القوة تحت قيادته.

وطار العقيد فرحا. ولم يعرف كيف يوجه الشـكر لمعبوده عبدالناصر على موقفه القومى العروبى.. واستجابته لمطلب توفير الحماية للشواطئ الليبية.

ومـا أن خـرج القذافى حتى أصـدر عبدالناصر أوامـره إلى وزير الحربيـة لتنفيذ هذه المطالب.. بعدها تحدث مباشـرة مع قائد القوات البحرية، وطلب منه أن تأتمر هذه القوة بأوامر القذافى ولكن بشـرط ألا تنفذ أى أمر يصدر لها إلا بعد إبلاغك شـخصيا بذلك. وإن كان بها ما يثير شكوكك أو شكوك قائدها فيجب أن يتم إبلاغى بذلك فورا.

وكانت شكوك عبدالناصر فى محلها. فبعد أسابيع تم إبلاغه بأن القذافى طلب من قائد القوة البحرية المصرية إرسال غواصة إلى منطقة قريبة من الشاطئ الإسرائيلى لإغراق باخرة أمريكية سياحية ضخمة أثناء توجهها إلى الموانئ الإسرائيلية.. وكانت الباخرة تحمل على ظهرها عددا كبيرا من اليهود والإسرائيليين بجانب مجموعة من اليهود الأمريكيين الأثرياء وأعضاء من السـلطتين التشـريعية والتنفيذية. فأصدر أوامره بعودة هذه القوة البحرية فورا بعد أن تبين أن الزعيم الليبى قد خدعه.

❑❑❑